

روبنسن کروزو

کامل کیلانی



روبنسن کروزو

روبنسن کروزو

تأليف
کامل کیلانی



روبنسن كروزو

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢/١٩٢١٢

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٠٩٣٠

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادلي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	مقدمة
٩	إِلْمَامَة
١٥	تمهيد
٢١	١- أَهْوَالُ الْبَحْرِ
٢٧	٢- بَيْنَ الْأَسْرِ وَالْحُرِّيَّةِ
٣٩	٣- فِي جَزِيرَةِ نَائِيَّةِ
٤٩	٤- الْوَطَنُ الْجَدِيدُ
٥٧	٥- الزَّلْزَالُ
٧٣	٦- زَمَنُ الْعُزْلَةِ
٨٥	٧- جُمُعَة
١١١	٨- الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ
١١٩	٩- أَهْوَالُ الْبَرِّ

مقدمة

بقلم چان چاك روسو

«ما دُمنا لا نَسْتَعْنِي عَنِ الْكُتُبِ، ولا مَعْدَى لَنَا عَنِ الْمُطَالَعَةِ؛ فَثَمَّةُ كِتَابٍ هُوَ عِنْدِي أَثْمَنُ نُحْرٍ فِي التَّرْبِيَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ. وَسَيَكُونُ أَوَّلُ كِتَابٍ يَقْرُوهُ طِفْلِي «إميل». وَسَيُصْبِحُ — وَحْدَهُ — كُلَّ مَكْتَبَتِهِ. وَسَيَرَى فِيهِ — عَلَى الدَّوامِ — مِنَ الْمَزَايَا الْبَاهِرَةِ مَا يَدْفَعُهُ لِإِحْلَالِهِ أَسْمَى مَكَانٍ عِنْدَهُ.

وَسَيَظِلُّ هَذَا الْكِتَابُ عُمْدَةً فِي هَذَا الْبَابِ، وَيَظِلُّ كُلُّ مَا عَدَاهُ — مِنْ كُتُبِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ — حَوَاشِي وَتَعْلِيقَاتٍ عَلَيْهِ. فَهُوَ أَصْدَقُ مِقْيَاسٍ نَقِيسُ بِهِ مَدَى نَجَاحِنَا فِي الْحَيَاةِ، كَمَا نَقِيسُ عَلَيْهِ أَحْكَامَنَا الَّتِي نُصْدِرُهَا. وَسَيَظِلُّ — كَذَلِكَ — مُتَجَدِّدَ الرُّوعَةِ وَالْأَثَرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ نَقْرُوهُ، مَا دَامَ لَنَا ذَوْقٌ لَمْ يَنْطَرِّقْ إِلَيْهِ الْفَسَادُ.

تُرَى مَا هُوَ هَذَا الْكِتَابُ إِذَنْ؟

لَعَلَّهُ كِتَابُ «أَرِسْطُو» أَوْ «بَلِين» أَوْ «بُوفُون»!

كَلَّا، لَيْسَ كِتَابُ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، بَلْ هُوَ كِتَابُ «رُوبِنْسُنْ كَرُوزُو».

روبنسن كروزو



«جان جاك رسو»

إِلَامَة

بقلم كامل كيلاني

تعد قصة «روبينسن كروزو» من أشهر القصص العالمية التي كتب لها الخلود. وقلما تجد فتى — أو فتاة — ممن يتكلم الإنجليزية في أي بلد من بلاد العالم، لم يقرأها في شغف وسرور لا حد لهما، وهو مبتهج بتلك القصة الفاتنة، التي تشرح له كيف غرقت السفينة، ومات من فيها، ونجا واحد بمفرده من ملاحيتها، وعاش في جزيرة مقفرة لا أنيس بها. وكثيراً ما يسأل الطفل أبويه عن دقائق القصة وتفاصيلها.

وقد اتخذها رجال التربية أساساً لتثقيف الأطفال، لأنها تعودهم الجد والدأب، وتنشئهم على الحياة الاستقلالية أحسن تنشئة. وقد جعلوها أساساً لنظام الكشف، كما اتخذوها مرشداً لهم ومعيناً في اقتباس نظرية ربط المواد الدراسية ببعض.

وقد ولد مؤلف هذه القصة «دانييل ديفو» بمدينة «لندن» عام ١٦٦١م، ومات في ٢٦ من أبريل سنة ١٧٣١ م. وكان مشهوراً بالصدق والأمانة. وكان اسم أبيه «جيمس فو».

وقد ظل اسم المؤلف — منذ نشأته إلى أن بلغ الأربعين من سنيه — «دانييل فو»، ثم تغير بعد ذلك؛ فأطلق عليه الناس اسم «دانييل ديفو». وكان لهذا التغير قصة طريفة؛ هي أنه كان متعوداً أن يمضي بحوثه ومقالاته بالحرف الأول من اسمه ويردfe بالاسم الثاني منه كاملاً هكذا «د. فو»؛ فتعود الناس أن ينطقوا باسمه هكذا: «ديفو».

ثم غلب ذلك الاسم عليه، لذيوعه وخفته على السمع وجمال موسيقاه؛ فأصبحوا يسمونه منذ ذلك الحين «دانييل ديفو».



وليس لدينا أنباء وثيقة عن نشأة هذا الكاتب النابغة، كما أننا لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرته الأولى. وغاية علمنا أن أباه كان قصاباً (جَزَّارًا) يعيش في «لندن»، وأنه قد عُني بتعليم ولده وتنقيفه العناية كلها، ولم يأل جهداً في تعهده بالدرس والتحصيل على خيرة معلمي عصره، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره أُرسِلَ إلى إحدى جامعات «لندن» ليتم ثقافته. وهكذا تفقه المؤلف في الدين، وبرع في علوم الرياضة والجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك، كما أتقن خمس لغات. وقد وُفِّقَ إلى كتابة كثير من البحوث الرائعة: من دينية واجتماعية وإصلاحية وسياسية، فكانت سبباً في إذاعة مواهبه ونبوغه بين معاصريه.

وكان عصره عصر اضطرابات وثورات. وقد اشترك في بعضها، وعرض نفسه لأخطار القتل والسجن والتنكيل، فأثر الهرب إلى «إسبانيا»، حيث استخفى عامين، ثم عاد إلى وطنه. وساعده الحظ، فتزوج في «لندن». واشتغل بالتجارة، فلم يكتب له النجاح فيها؛ لانصرافه عنها إلى الكتابة والبحث. ولم تمر عليه سبع سنوات حتى أَرهقه الدَّيْنُ الذي

أربى على سبعة عشر ألف جنيه. ولكن ثقة دائنيه به قد ساعدته — فيما بعد — على أداء هذا الدين الجسيم.

ثم رحل إلى «برستول»، حيث أنشأ صحيفة باسمه، وكتب فيها كثيراً من اقتراحاته الاقتصادية المثمرة؛ فأخذت بها بلاده، وأقرت آراءه فيها، وكان يحث مواطنيه على إنشاء الطرق، والمصارف الاقتصادية للفقراء، وما إلى ذلك من تنظيم الخطط الناجحة لتعليم جمهرة الشعب.

وكان لاقتراحاته تلك أكبر أثر في نفس «بنيامين فرانكلين»، الذي قرر — صراحة — أنه استفاد أكبر فائدة من البحث الذي سبقه إليه «ديفو» منذ عدة سنوات، وقد حمد الحظ السعيد الذي قاده إلى هذا البحث في مكتبة أبيه.

وقد اتصل بالملك «وليم الثالث» ودافع عن سياسته، فذاع صيته. ولما مات «وليم الثالث» ألمه موته، وعده خسارة فادحة. وانتهاز خصومه الفرصة؛ فتألبوا عليه ونكلوا به. ثم عطفت عليه الملكة «حنة»، بعد أن توسط له أحد الوزراء؛ فظلت تشملها برعايتها حتى ماتت.

كيف اشتهر ديفو؟

أما شهرة «ديفو» العظيمة، فكان بدؤها قصيدة نظمها في الدفاع عن «وليم أورانج» ملك إنجلترا حينئذٍ، ردًا على قصيدة نظمها أحد الشعراء في التهكم به، فأكسبته عطف الملك وحب الشعب والحكومة، وأحرز منصبًا جليلًا في عام ١٦٩٤م.

وأبى إلا أن يزحم وقته بالعمل، فأنشأ مصنع طوب كبيرًا، ولكنه لم يوفق فيه لكثرة أعماله. ثم مات «وليم أورانج» في عام ١٧٠٢م، ففقد «ديفو» بموته أكبر نصير ومشجع له.

وفي عهد الملكة «حنة» لقي «ديفو» كثيرًا من العنت والإرهاق؛ فتأول خصومه في بعض مقالاته ما شاء لهم الحقد والهوى. وانتهت محاكمته بسجنه، وتغريمه غرامة فادحة في أواخر يونية سنة ١٧٠٣م.

وقد شهر به خصومه، ولكن ذلك لم يقلل من إعجاب منصفيه الذين عرفوا نبيل قصده وشرف غايته. وقد كتب في سجنه عدة مقالات نفيسة. ولما خرج من السجن أنشأ

صحيفة أخرى نالت أكبر النجاح، وظلت تصدر إلى عام ١٧١٣م. وكانت أول أمرها تظهر مرة في الأسبوع، فمرتين، ثم ظلت تصدر تباعاً ثلاث مرات كل أسبوع.

وقد لقي «ديفو» كثيراً من الاضطهاد والعنت، وتعرضت حياته للقتل، ثم عاد بعد ذلك إلى خدمة الحكومة. وفي عام ١٧١٤م فصل من عمله، وعاد إلى التعرض للإعنات مرة أخرى. وتألّب عليه أعداؤه، ودبروا له كثيراً من الدسائس والمؤامرات، ورموه بالأنانية، فأنشأ صحيفة جديدة سماها: «الدعوة إلى الشرف والعدل». ودافع عن مبادئه وأغراضه دفاعاً مجيداً. وكانت هذه الصحيفة خاتمة حياته السياسية. ثم ساءت صحته وألح عليه المرض، ولكن بنية جسمه القوية ساعدته على التغلب على متاعبه وأمراضه، فاسترد صحته بعد قليل.

وقد ألف كثيراً من البحوث والمقالات والرسائل في الدين والحكومة والوطن. ثم ألف في أخريات أيامه نخبة من الكتب الشائقة التي أقبل عليها الجمهور أيما إقبال. وقد أدرك بفطرته تعلق الجمهور بالقصص، وشدة تأثره بها، وتهافتة عليها؛ إذا كانت صادقة الوصف والتحليل، دقيقة في تصوير الحياة. فنال بقصصه نجاحاً عظيماً؛ لأن قصته كانت تحلق دائماً في جو سحري خلاب يزينه الصدق والدقة والإخلاص.

وفي عام ١٧١٥م ألف كتاب «معلم الأسرة» فنال قسطاً كبيراً من النجاح والذيق، وأقبل عليه الجمهور. ثم ألف كتابه الخالد «روبينسن كروزو» وهو أشهر قصصه. وقد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة «حي بن يقظان». ونشر القسم الأول منه في أبريل سنة ١٧١٩م، وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره.

وقد لقي هذا الكتاب من الإقبال والشهرة ما لم يكن يحلم به «ديفو»، وأصبح حبيباً إلى كل نفس. ومن العجيب أنه لقي كثيراً من المتاعب والصعوبات في البحث عن ناشر ينشره له في أول الأمر. وليس في قدرتنا أن نعلم كم ربح من كتبه، وإن كنا نستطيع أن نعرف مدى نجاحه العظيم، فقد نفدت أربع طبعات متوالية في أربعة أشهر متعاقبة. وبعد زمن قليل ظهر القسم الثاني من القصة، فلقي من الرواج والنجاح والإقبال مثل ما لقي سابقه. وهكذا ظفر «ديفو» بالشهرة عن طريق هذا الكتاب، ولم يظفر بها عن طريق بحوثه السياسية والدينية الكثيرة، على أن له عدة مؤلفات أخرى.

وقد سار على نهجه بعض الكتاب، ولم يقدر لهم الفوز ولم ينجح من بينهم غير كتاب «روبينسن سويسرا» أو «الأسرة السويسرية» الذي ألفه «رودلف نيس» أستاذ الفلسفة في

جامعة «برن». وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص، ينجون من الغرق؛ فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة، يظللها الوئام والحب؛ فتتغلب على العقبات والمصاعب.

على أن «ديفو» له عدة مؤلفات أخرى، نذكر منها كتابه عن «الطاعون الهائل» الذي انتشر عام ١٦٦٥م. ولكن لم يرزق أي كتاب من كتبه حظاً من الخلود كما رزقت قصة «روبنسن كروزو». ولقد كانت كتبه شائعة جذابة، ولكن ليس لها سحر هذه القصة، وروعة هذا الملاح الذي كُتِبَ له أن تغرق سفينته وأن يعيش في جزيرة مقفرة.

وقد ساعده ما ربحه من المال — لقاء كتابته — على أن يقضي بقية حياته مستريح البال، بعيداً عن الفاقة، فابتنى قصرًا فاخرًا، واشترى عربية جياد، وعاش عيشة راضية. ولكن صفوه لم يدم، فقد نهكه مرض النقرس، وضايقه عقوق ولده؛ فعجل ذلك بموته لما استولى عليه من الغم، ودفن في «لندن» في الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٧٣١م.

تمهيد

مَقَدِّمَاتُ السَّفَرِ

(١) أُسْرَةُ «رُوبِنْسُن»

كَانَتْ وَلَدَتِي فِي عَامِ ١٦٣٢ م بِمَدِينَةِ «يُزْك» الَّتِي اتَّخَذَهَا أَبِي مَوْطِنًا ثَانِيًا لَهُ، بَعْدَ أَنْ كَسَبَ مِنَ التَّجَارَةِ مَكَاسِبَ طَائِلَةً، وَجَنَى^١ ثَرَوَةً عَظِيمَةً، كَفَلَتْ لَهُ عَيْشَةً رَاضِيَةً. وَكَانَتْ أُسْرَتُنَا مُؤَلَّفَةً مِنْ: وَالِدِي الشَّيْخِ، وَأُمِّي الْعَجُوزِ، وَثَلَاثَةِ أَبْنَاءٍ كُنْتُ أَصْغَرَهُمْ سِنًا.

وَقَدْ قُتِلَ شَقِيقِي الْأَكْبَرُ فِي مَعْرَكَةِ حَرْبِيَّةٍ، وَسَافَرَ الشَّقِيقُ الْأَوْسَطُ إِلَى حَيْثُ لَا نَدْرِي؛ فَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ، وَلَمْ نَعْلَمْ عَنْهُ — بَعْدَ ذَلِكَ — شَيْئًا. وَعَنِي أَبِي عِنَايَةً كَبِيرَةً بِتَعْلِيمِي، وَنَشَأَنِي أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ، وَزَوَّدَنِي بِكَثِيرٍ مِنْ نَصَائِحِ الثَّمِينَةِ، وَاخْتَارَ لِي أَنْ أَتَفَقَّهَ فِي الْقَانُونِ^٢ وَلَكِنِّي كُنْتُ شَدِيدَ الزُّهْدِ فِي دَرْسِهِ، وَكَانَتْ نَفْسِي مُنْصَرِفَةً عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

^١ جمع.

^٢ أتعلمه.

(٢) حُبُّ السَّيَاحَةِ

هِيَ أُمْنِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، طَالَمَا تَمَنَّيْتُهَا، وَرَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ، طَالَمَا وَدِدْتُ تَحْقِيقَهَا، فَقَدْ شَغِفْتُ^٣ بِالسَّيَاحَةِ وَرُكُوبِ الْبَحَارِ، وَتَمَلَّكَ عَلَيَّ حُبُّ السَّفَرِ كُلِّ نَفْسِي؛ فَلَمْ أَعُدْ أُضْغِي إِلَى لَوْمٍ أَوْ نَصِيحَةٍ. وَكَأَنَّ إِرَادَةَ قَاهِرَةً قَدْ هَيَمَتْ عَلَى نَفْسِي، وَغَلَبَتْنِي عَلَى أَمْرِي؛ فَلَمْ أَصْغِ إِلَى نَصِيحَةِ أَبِي، وَرَجَاءِ أُمِّي، وَالْحَاحِ أَقَارِبِي؛ حَتَّى يَتَسَوَّأَ مِنْ هِدَايَتِي، لِمَا رَأَوْهُ مِنْ عِنَادِي وَإِصْرَارِي.

(٣) نَصِيحَةُ وَالِدِهِ

وَكَانَ أَبِي شَيْخًا مُجَرَّبًا حَكِيمًا، وَكُنْتُ أَحِبُّهُ وَأُجِلُّهُ. وَذَا صَبَاحٍ دَعَانِي إِلَى غُرْفَتِهِ — وَكَانَ الشَّلَلُ قَدْ أَعْجَزَهُ عَنِ الْمَشْيِ — وَقَالَ لِي وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَمَارَاتُ الْغَيْظِ وَالْأَلَمِ: «أَيُّ رَغْبَةٍ مَجْنُونَةٍ تَدْفَعُكَ إِلَى مُغَادَرَتِنَا، وَتَبْغِضُ إِلَيْكَ الْبَقَاءَ مَعَنَا؟ وَمَاذَا يُضْجِرُكَ^٤ مِنْ حَيَاةٍ هَنِيئَةٍ وَعَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ، فِي بَيْتٍ نَشَأْتَ فِيهِ، وَوَطَنٍ أَلْفَنَّهُ وَأَحْبَبْتَهُ؟ وَمَا بَالُكَ تُؤْثِرُ^٥ الشَّقَاءَ عَلَى الرَّاحَةِ، وَتُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِأَخْطَارِ الْبَحْرِ وَمَتَاعِبِ السَّفَرِ؟ لَقَدْ يَسَّرَ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَ السَّعَادَةِ، وَهَيَأَ لَكَ عَيْشَةً رَاضِيَةً، فَمَا أَجْدَرُكَ^٦ أَنْ تَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ، وَتَحْمَدَهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي اخْتَصَّكَ بِهَا! وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنَادِكَ، وَأَبَيْتَ إِلَّا تَحْقِيقَ رَغْبَتِكَ الْمَجْنُونَةِ فِي السَّفَرِ، أَغْضَبْتَنِي، وَأَغْضَبْتَ أُمَّكَ، وَأَغْضَبْتَ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — الَّذِي أَمَرَكَ بِطَاعَةِ آبُوكَ.»

^٣ تعلق قلبي.

^٤ تسلطت.

^٥ يضايقك.

^٦ تختار.

^٧ أحسن لك.



(٤) دَعْوَةُ مُسْتَجَابَةٍ

وَضَلَّ أَبِي يَعْنُفٌ^٨ فِي كَلَامِهِ تَارَةً، وَيَلِينُ تَارَةً أُخْرَى، وَيَضْرِبُ لِي الْأَمْثَالَ. وَلَمْ يَدَعْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النَّصْحِ إِلَّا سَلَكَهَا. ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «وَأَذْكُرُ — يَا وَلَدِي — أَنَّي فَقَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَكْبَرَ الَّذِي قُتِلَ فِي الْحَرْبِ، وَفَقَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَوْسَطَ الَّذِي أَصَرَّ عَلَى السَّفَرِ، كَمَا تُصِرُّ عَلَيْهِ الْآنَ؛ وَقَدْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنَّا إِلَى الْيَوْمِ، فَمَا نَعْلَمُ: أَحْيَى هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟ وَأَصْبَحْتَ لَنَا — بَعْدَ أَخَوَيْكَ — كُلَّ رَجَائِنَا وَعَزَائِنَا، فَإِذَا أَصَرَرْتَ عَلَى عِنَادِكَ، وَأَبَيْتَ إِلَّا السَّفَرَ فَلَنْ يُبَارِكَ اللَّهُ لَكَ، وَلَنْ تَلْقَى — فِي سَفَرِكَ — إِلَّا الْعَنَاءَ وَالشَّقَاءَ.»

^٨ يشدد.

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَكْهُنًا^٩ صَادِقًا، وَدَعْوَةً مُسْتَجَابَةً؛ فَقَدْ شَقِيتُ — بَعْنَادِي وَإِصْرَارِي^{١٠} — شَقَاءً لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي.

(٥) عُذُولُهُ عَنِ السَّفَرِ

وَكَانَ صَوْتُ أَبِي مُتَهَدِّجًا،^{١١} وَدُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ^{١٢} مِنْ عَيْنَيْهِ وَقَدْ اشْتَدَّ أَلَمُهُ حِينَ ذَكَرَ لِي مَوْتَ شَقِيقِي الْأَكْبَرِ، وَانْقِطَاعَ أَخْبَارِ شَقِيقِي الْأَوْسَطِ.
وَكَانَ يَتِمَثَّلُ لِي حَنَانُهُ وَعَظْفُهُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُ بِهَا. وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِي أَنْ أَخَالَفَ لَهُ نَصْحًا بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَوَعَدْتُهُ بِالْعُدُولِ عَنِ السَّفَرِ. وَعَقَدْتُ عَزْمِي^{١٣} عَلَى الْبَقَاءِ فِي وَطَنِي، نَزُولًا عَلَى حُكْمِهِ، وَطَاعَةً لِأَمْرِهِ.

(٦) نَقْضُ الْعَهْدِ

وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ عَاوَدَتْنِي رَغْبَةٌ قَاهِرَةٌ فِي السَّفَرِ، وَحَيْنٌ شَدِيدٌ إِلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ فَانْسَيْتُ مَا عَاهَدْتُ أَبِي عَلَيْهِ، وَتَحَوَّلْتُ^{١٤} لِذَلِكَ حِيلَةً لَمْ أَوْفَقْ فِيهَا؛ فَقَدْ رَأَيْتُ دَلَالِلَ الْإِبْتِهَاجِ بَادِيَةً عَلَى وَجْهِ أُمِّي — ذَاتَ يَوْمٍ — فَوَجَدْتُ فِي ذَلِكَ فُرْصَةً سَانِحَةً لِلْإِفْضَاءِ إِلَيْهَا بِرَغْبَتِي فِي السَّفَرِ، وَاسْتِثْنَائِهَا فِيهِ. وَتَلَطَّفْتُ فِي شَرْحِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحْفِزُنِي^{١٥} إِلَى السَّفَرِ لِرُؤْيَةِ الْبِلَادِ الَّتِي طَالَمَا سَمِعْتُ عَنْهَا. وَأَظْهَرْتُ لَهَا أَنَّ هَذِهِ الرِّغْبَةَ قَدْ مَلَأَتْ نَفْسِي؛ فَلَمْ أَعُدْ أَصْلِحْ لِأَدَاءِ أَيْ عَمَلٍ آخَرَ، قَبْلَ أَنْ أَظْفَرَ بِتَحْقِيقِهَا. وَخَتَمْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا: «وَاعْلَمِي أَنَّي إِذَا عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بِهَذَا الْإِذْنِ مِنْكَ وَمِنْ أَبِي فَإِنَّنِي مُعْتَزِمُ السَّفَرِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَانٍ. وَلَا تَنْسَيَنَّ أَنَّي

^٩ إخبارًا بالغيب.

^{١٠} عزمي الثابت.

^{١١} مرتعشًا.

^{١٢} تسقط.

^{١٣} بنيت إرادتي.

^{١٤} اتخذت.

^{١٥} تدفعني.

قَدْ بَلَغْتُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِي، وَأَصْبَحْتُ عَاقِلًا رَشِيدًا، أَمْلِكُ أَمْرِي. عَلَى أَنِّي أَرَى الْخَيْرَ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي السَّفَرِ».

(٧) غَضِبَ أَبُوهُ

وَمَا سَمِعْتُ أُمِّي مِنِّْي هَذَا الْكَلَامَ حَتَّى اشْتَدَّ غَضَبُهَا عَلَيَّ، وَقَالَتْ لِي: «مَنْ الْعَبَثُ أَنْ تَتِمَادَى^{١٦} فِي إِقْنَاعِنَا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ الطَّائِشَةِ الَّتِي لَا تَجُرُّ عَلَيْكَ إِلَّا الْوَبَالَ^{١٧}. وَلَنْ يَسْمَحَ لَكَ أَبُوكَ بِأَنْ تُعَرِّضَ نَفْسَكَ لِلْهَلَاكِ».

وَمَا أَخْبَرْتُ أَبِي بِمَا اعْتَزَمْتُهُ، حَتَّى اشْتَدَّ أَلَمُهُ وَغَيْظُهُ، وَقَالَ لَهَا: «يَبْدُو لِي أَنَّ الشَّقَاءَ مُقَدَّرٌ لِهَذَا الْوَلَدِ التَّائِعِ. وَسَيَلْقَى فِي سَفَرِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْأَهْوَالِ، مَا لَا يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالٍ. وَسَيَعْرِفُ أَنَّ مَا يَحُلُّ بِهِ مِنَ النِّكَابِ هُوَ عِقَابُ عَادِلٍ عَلَى مُخَالَفَتِهِ نَصِيحَةَ أَبِيهِ. وَلَنْ يَسْمَحَ لِي ضَمِيرِي أَنْ أَشْرَكُهُ فِي تَسْهِيلِ أَسْبَابِ شَقَائِهِ».

وَمَا انْقَضَى عَلَيَّ عَامٌ — بَعْدَ ذَلِكَ — حَتَّى فَرَزْتُ مِنَ الْبَيْتِ، وَقَدْ أَرَمَعْتُ^{١٨} السَّفَرَ، بَعْدَ أَنْ عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بِرِضَاءِ أَبِي. وَكُنْتُ أَعْجَبُ لِتَشَبُّهِمَا^{١٩} بِبَقَائِي مَعَهُمَا. وَلَمْ أَعْلَمْ — حِينَئِذٍ — مَا كَانَ يَخْبُوهُ لِي الْقَدَرُ مِنَ مَصَائِبَ وَوَيْلَاتٍ.

^{١٦} تستمر.

^{١٧} سوء العاقبة.

^{١٨} قررت.

^{١٩} تعلقهما.

الفصل الأول

أَهْوَالُ الْبَحْرِ

(١) أَوَّلُ سِبْتَمْبَرِ

سَاقَتْنِي الْمُصَادِفَاتُ الْعَجِيبَةُ — ذَاتَ يَوْمٍ — إِلَى «هَلْ»، وَلَمْ أَكُنْ أَفْكَرُ — حِينَئِذٍ — فِي السَّفَرِ إِلَيْهَا، وَلَا خَطَرَ لِي ذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَلَى بَالٍ.

وَلَقِيتُ — فِي طَرِيقِي — أَحَدَ أَصْدِقَائِي، فَحَيَّانِي وَحَيَّيْتُهُ. ثُمَّ عَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ عَلَى أَهْبَةِ السَّفَرِ^١ إِلَى «لَنْدَنَ». وَدَعَانِي إِلَى السَّفَرِ مَعَهُ فِي سَفِينَةِ أَبِيهِ؛ فَرَأَيْتُهَا فُرْصَةً نَادِرَةً لَتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِي، دُونَ أَنْ يُكَلِّفَنِي ذَلِكَ أَجْرًا. وَغَلَبَ عَلَيَّ حُبُّ الْبَحْرِ، فَنَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ. وَلَمْ أَحْفَلْ^٢ بِإِذْنِ وَالِدِي لِي فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ، وَلَمْ أَقْدُرْ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ.

وَهَكَذَا رَكِبْتُ الْبَحْرَ ... وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ^٣ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي أَقْدَمْتُ فِيهِ عَلَى هَذِهِ الْمُجَازَفَةِ؛ فَقَدْ كَانَ أَشْأَمَ يَوْمٍ فِي تَارِيخِ حَيَاتِي، إِذْ كَانَ فَاتِحَةً عَهْدِ الشَّقَاءِ.

ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ أَوَّلُ سِبْتَمْبَرِ عَامَ ١٦٥١ م.

^١ مستعد للرحيل.

^٢ لم أهتم.

^٣ إن نسيت كل شيء فلن أنسى.

(٢) هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ

وما كَادَتِ السَّفِينَةُ تَمُحُّرُ^٤ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ، حَتَّى رَأَيْتُ الْأَمْوَاجَ تَصْطَخِبُ^٥ وَتَعْنِفُ^٦ وَلَمْ أَكُنْ رَكِبْتُ الْبَحْرَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ؛ فَمَلَكَنِي الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ، وَأَحْسَسْتُ أَنَّ آخِرَتِي قَدْ حَانَتْ. وَتَمَلَّكْتُ لِي نَصَائِحُ وَالِدَيَّ وَأَهْلِي، وَذَكَرْتُ كَلِمَاتِ أُمِّي الَّتِي كَانَتْ تَقُولُهَا لِي وَالْدُمُوعُ مُتَحَدِّرَةً مِنْ مَاقِيهَا.^٧ وَأَيَقَنْتُ أَنَّ هَذِهِ الْعَاصِفَةَ لَيْسَتْ إِلَّا عِقَابًا عَادِلًا وَجَزَاءً وَفَاقًا. وَاشْتَدَّ هَيْجُ الْبَحْرِ وَاضْطِرَابُهُ. وَرَأَيْتُ الْعَاصِفَةَ الْهَوْجَاءَ، وَهِيَ تُنْذِرُنَا بِالْهَلَاكِ — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — وَقَدْ أَوْشَكَ الْمَوْجُ أَنْ يَبْتَلِعَنَا جَمِيعًا. وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفِينَةَ تَهْبِطُ حَتَّى تَلْمَسَ قَاعَ الْبَحْرِ، فَلَمْ أَرْ مَنَاصًا^٨ مِنَ الْمَوْتِ. وَنَذَرْتُ لِلَّهِ نَذْرًا أَلَّا أَرْكَبَ الْبَحْرَ مَا حَيَّيْتُ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، إِذَا نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ! وَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُنْقِذَنِي، لِأَعُودَ إِلَى أَبَوَيَّ تَائِبًا نَادِمًا عَلَى عِصْيَانِي وَمُخَالَفَتِي، وَأُعَاهِدُهُمَا^٩ عَلَى أَنْ أُطِيعَهُمَا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرَانِ بِهِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي سَكَنَ الْهَوَاءُ، وَهَذَا الْبَحْرُ. وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّي قَدْ تَعَوَّدْتُهِ وَالْفَتْهُ بَعْضَ الْأَلْفَةِ، وَلَمْ يَكُنْ — حِينَئِذٍ — قَدْ تَمَّ شِفَائِي مِنَ الدَّوَارِ.^{١٠} وَلَمَّا اقْتَرَبَ اللَّيْلُ وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ وَانْقَشَعَتِ السُّحُبُ،^{١١} ظَهَرَتْ رَوْعَةُ الْبَحْرِ،^{١٢} وَجَمَالَ الطَّبِيعَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. وَهَبَّ عَلَيْنَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي نَسِيمٌ خَفِيفٌ. وَأَصْبَحَ الْبَحْرُ كَالْمَرَاةِ الصَّافِيَةِ، وَتَجَلَّتِ الطَّبِيعَةُ فِي أَبْهَى حُلِّهَا.^{١٣} وَرَأَيْتُ مِنْ جَمَالِ الْبَحْرِ — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — مَا

^٤ تشق الماء.

^٥ تتقلب.

^٦ تشتد.

^٧ جوانب عينيها.

^٨ مخرجًا.

^٩ أكلف لهما.

^{١٠} وجع يصيب الرأس من ركوب البحر.

^{١١} زالت.

^{١٢} حسن منظره.

^{١٣} أجمل أثوابها.

أُنْسَانِي هِيَاجُهُ وَاضْطِرَابُهُ بِالْأَمْسِ، فَنَسِيتُ ذَلِكَ النَّذْرَ الَّذِي نَذَرْتُهُ لِلَّهِ، وَالْعَهْدَ الَّذِي قَطَعْتُهُ عَلَى نَفْسِي!

وَجَاءَ إِلَيَّ صَدِيقِي يُرَبِّتُ كَتِفِي وَيَقُولُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ الْآنَ؟ شَدَّ مَا رَوَّعَكَ»^{١٤} الْبَحْرُ يَا صَدِيقِي. وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ^{١٥} بِالشَّجَاعَةِ، فَقَدْ امْتَلَأْتُ نَفْسَكَ خَوْفًا وَرُعْبًا حِينَ هَبَّتْ عَلَيْنَا نَسَمَةٌ لَطِيفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ.

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبًا: «كَيْفَ تُسَمِّيَهَا نَسَمَةً، وَهِيَ عَاصِفَةٌ هُوَ جَاءَ مُرَوَّعَةً؟»
فَقَالَ لِي: «وَكَيْفَ تُسَمِّيَهَا عَاصِفَةً؟ يَا لَكَ مِنْ سَادَجٍ! إِنَّهَا نَسَمَةٌ خَفِيفَةٌ، طَالَمَا أَلْفَاها وَهَزْنُنا بِها، فَلَا تَجْزَعُ مِنْ أَمثالِها؛ فَأَنْتَ رَجُلٌ، وَمَا أَجْدَرُ الرَّجُلَ أَنْ يَكُونَ شَجَاعًا!»

(٣) فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ

وَقَدْ أُنْسَانِي هُدُوءُ الْبَحْرِ وَصَفَاؤُهُ كُلَّ أَلَمِي وَأَحْزَانِي. وَشَغَلَنِي التَّأَمُّلُ فِي جَمَالِ الطَّبِيعَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَلَمْ يَنْقُضْ عَلَيَّ سَبْعَةُ أَيَّامٍ حَتَّى اطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي إِلَى حَيَاةِ الْبَحْرِ، وَلَمْ أَعُدْ أَذْكُرْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِي، وَنَسِيتُ كُلَّ مَا زَوَّدُونِي بِهِ مِنْ نَصَائِحَ. وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَنَفَتِ الرِّيحُ، وَاشْتَدَّتْ اشْتِدَادًا لَا مِثِيلَ لَهُ. وَبَدَأَ الْقَلْقُ وَالِاضْطِرَابُ عَلَى أَسَارِيرِ الْمَلَّاحِينَ؛^{١٦} فَأَنْزَلُوا أَشْرَعَةَ السَّفِينَةِ، وَتَاهَبُوا^{١٧} لِمُلَاقَاةِ الْخَطَرِ وَجْهًا لَوَجْهِهِ. وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ اشْتَدَّ هِيَاجُ الْبَحْرِ، وَدَبَّ الْيَأْسُ فِي نَفُوسِنَا جَمِيعًا. وَسَمِعْتُ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وَقَدْ كَانَ مِثَالَ الشَّجَاعَةِ وَالْحَزَمِ — وَهُوَ يُنَاجِي نَفْسَهُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «رَحْمَةً بِنَا يَا إِلَهِي! فَقَدْ هَلَكْنَا جَمِيعًا، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا مَلْجَأٌ سِوَاكَ.»

^{١٤} أزعجك.

^{١٥} ما أحقك.

^{١٦} خطوط جبينهم.

^{١٧} استعدوا.

وَامْتَلَأَتْ نَفْسِي رُعبًا؛ إِذْ رَأَيْتُ الْأَمْوَاجَ تَرْتَفِعُ كَالْجِبَالِ، وَتَتَقَضُّ^{١٨} عَلَيْنَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، فَيُخِيلُ
إِلَيْنَا أَنَّهَا قَدْ ابْتَلَعَتْنَا. وَرَأَيْنَا السُّفُنَ الْقَرِيبَةَ تُعَانِي مِثْلَ مَا نُعَانِيهِ، وَقَدْ غَرِقَتْ سَفِينَةُ كَبِيرَةٌ
بِالْقُرْبِ مِنَّا. وَمَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ حَتَّى صَاحَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ يَطْلُبُ مِنْ رِفَاقِهِ النَّجْدَةَ وَالْغَوْثَ؛
فَقَدْ ثَقِبَتِ السَّفِينَةُ! وَأَسْرَعْنَا إِلَيْهِ، فَرَأَيْنَا ثُغْرَةً^{١٩} يَتَدَفَّقُ مِنْهَا الْمَاءُ. وَتَعَاوْنَا جَمِيعًا عَلَى
إِخْرَاجِ الْمَاءِ مِنَ السَّفِينَةِ. وَأَطْلَقْتُ إِحْدَى السُّفُنِ الْقَرِيبَةِ مِنَّا مِدْفَعًا، إِنْذَارًا بِالْخَطَرِ، وَطَلَبًا
لِلنَّجْدَةِ. وَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ.

وَلَمْ أَفُقْ مِنْ غَشْيَتِي إِلَّا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ. وَأَطْلَقَ رُبَانُنَا مِدْفَعًا، التِّمَاسًا لِلنَّجْدَةِ، فَذَنَّتْ
مِنَّا سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لِإِنْقَاذِنَا، وَحَمَلَتْنَا إِلَى بَاخِرَةِ قَرِيبَةٍ. وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ
عَنَاءٍ^{٢٠} شَدِيدٍ.

وَبَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ رَأَيْنَا سَفِينَتَنَا وَهِيَ تَغْرُقُ. وَمَضَى عَلَيْنَا زَمَنٌ طَوِيلٌ وَنَحْنُ مُسْتَهْدِفُونَ^{٢١}
لِلْخَطَرِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى. وَلَمْ نَبْلُغِ الشَّاطِئَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ خَارَتْ^{٢٢} قَوَانَا وَيَسُّنَا مِنَ النِّجَاةِ.

(٤) بَعْدَ النِّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ

وَلَقَدْ كَانَ جَدِيرًا بِي — بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْغَرَقِ — أَنْ أَفِي بِنَذْرِي، وَأَعُودَ إِلَى
أَهْلِي تَائِبًا نَادِمًا عَلَى مَا فَرَطُ^{٢٣} مِنِّي. وَلَكِنَّ غُرُورَ الشَّبَابِ^{٢٤} حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ تَحْقِيقِ هَذِهِ
الْفِكْرَةِ النَّبِيلَةِ، فَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي شِمَاتُهُ النَّاسِ بِي، وَسُخْرِيَتُهُمْ مِنِّي؛ لِمَا لَحَقَنِي مِنَ النِّكَبَاتِ

^{١٨} تسقط.

^{١٩} خرَقًا.

^{٢٠} تعب.

^{٢١} متعرضون.

^{٢٢} ضعفت.

^{٢٣} ما سبق وقوعه.

^{٢٤} خداعه وباطله.

فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْمَشْتُومَةِ. وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّنِي إِذَا عُدْتُ إِلَى أَهْلِي أَصْبَحْتُ سُخْرِيَةَ النَّاسِ. وَعَزَّ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْتَرَفَ بِخَطِيئِي.
وَقَدْ كَلَّفَنِي هَذَا الْغُرُورُ تَمَنَّا غَالِيًا جِدًّا؛ فَقَدْ دَفَعَنِي الْعِنَادُ إِلَى اقْتِحَامِ الْأَخْطَارِ وَرُكُوبِ الْبِحَارِ، وَلَقِيتُ مِنَ الْمَصَائِبِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بَالٍ.
فَعَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ سَافَرْتُ إِلَى «لَنْدُن» — عَلَى مُرَافَقَةِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَى شَوَاطِيءِ إِفْرِيقِيَّةَ. وَلَمْ أَعْلَمْ مَا يَحْبُوهُ لِي الْقَدَرُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْآلَامِ.

الفصل الثاني

بَيْنَ الْأَسْرِ وَالْحَرِيَّةِ

(١) رَحْلَةُ مُوَفَّقَةَ

كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي الْقَابِلَةَ سِلْسِلَةً مِنَ الْكَوَارِثِ^١ وَالنَّكَبَاتِ، فَلَا أَخْلَصَ مِنْ مُصِيبَةٍ حَتَّى تُسَلِّمَنِي إِلَى أُخْرَى، وَلَا أَنْجُوَ مِنْ مَازِقٍ^٢ حَتَّى أَقَعَ فِي مَازِقٍ شَرٍّ مِنْهُ؛ فَقَدْ أَغْضَبْتُ وَالِدِي وَأَهْلِي، وَأَهْمَلْتُ نَصَائِحَهُمْ، وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي بِلَا إِذْنٍ مِنْهُمْ.

وَنَمَّةً أَيْقَنْتُ أَنَّ مَا حَلَّ بِي مِنَ الْكَوَارِثِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِقَابًا عَادِلًا عَلَى تَمَرُّدِي وَعِصْيَانِي. لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّفَرِ، بَعْدَ أَنْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ إِلَى بَيْتِي مُخْفِقًا^٣. وَأَرَدْتُ أَنْ أَصْلِحَ الْخَطَأَ الْأَوَّلَ بِخَطِيئَةٍ أُخْرَى، أَكْثَرَ شِنَاعَةً مِنْهُ. فَمَا صَاحَبْتُ رُبَّانَ إِحْدَى السُّفُنِ — وَكَانَ أَوَّلَ شَخْصٍ لَقِيتُهُ مِنَ الْمَلَّاحِينَ — حَتَّى اعْتَزَمْتُ مُرَافَقَتَهُ فِي رَحْلَتِهِ. وَكَانَتْ سَفِينَتُهُ ذَاهِبَةً إِلَى شَوَاطِئِ «غَانَّة» وَقَدْ أَخْبَرَنِي بِمَا لَقِيَ مِنْ نَجَاحٍ، وَمَا أَفَادَ مِنْ غِنَى وَثَرَوَةٍ، فِي رَحْلَتِهِ الْأُولَى إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ. وَمَا تَعَرَّفَ قِصَّتِي حَتَّى شَجَّعَنِي عَلَى مُصَاحَبَتِهِ، وَأَغْفَانِي مِنْ نَفَقَاتِ الرَّحْلَةِ. وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ أَشْتَرِيَ — بِمَا مَعِيَ مِنَ النُّقُودِ — بَضَائِعَ لِاتَّجَرَ بِهَا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ؛ فَفَعَلْتُ كُلَّ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ.

^١ المصائب.

^٢ ضيق وشدة.

^٣ خائبًا.

وَنَجَحَتْ هَذِهِ الرَّحْلَةُ. وَقَدْ بَذَلَ جُهِدُهُ فِي تَدْرِيبِي عَلَى الْمِلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ. وَعُدْتُ إِلَى «لَنْدُن» مُغْتَبِطًا رَاضِيًا بِمَا أَصْبَحْتُ مِنْ رِبْحٍ وَتَوْفِيقٍ.

(٢) لُصُوصُ الْبَحْرِ

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ تُوِّفِّيَ ذَلِكَ الرَّبَّانُ؛ فَحَزِنْتُ لِمَوْتِهِ حُزْنًا شَدِيدًا، وَمَنَحْتُ أَرْمَلَتَهُ مَائَتِي جُنْيِهِ. وَشَرَيْتُ بِضَائِعِ بِمِائَةِ الْجُنْيَةِ الْبَاقِيَةِ مَعِي، وَأَبْحَرْتُ إِلَى «غَانَّة». وَلَكِنْ رَحَلْتَنَا — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — لَمْ تَكُنْ مُوَفِّقَةً؛ فَقَدْ اعْتَرَضَنَا لُصُوصُ الْبَحْرِ فِي الطَّرِيقِ، فَأَطْلَقْنَا لِسَفِينَتِنَا الْغِنَانِ، وَحَاوَلْنَا النِّجَاةَ مِنْهُمْ. وَكَانَ فِي سَفِينَتِنَا اثْنَا عَشَرَ مِدْفَعًا، وَعِنْدَ أَغْدَانِنَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِدْفَعًا. وَكُنَّا أَقَلَّ مِنْهُمْ عَدَدًا، وَلَكِنَّا اسْتَبَسَّلْنَا فِي دِفَاعِنَا وَقَهَرْنَاهُمْ مَرَّتَيْنِ. ثُمَّ كَرُّوا عَلَيْنَا — فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ — فَقَهَرُونَا، وَحَطَّمُوا قِلَاعَنَا، وَقَتَلُوا ثَلَاثَةً مِنْ رِجَالِنَا، وَجَرَحُوا ثَمَانِيَةً؛ فَاضْطُرَرْنَا إِلَى الْإِذْعَانِ لَهُمْ، وَوَقَعْنَا فِي أَسْرِهِمْ.

(٣) الْعُبُودِيَّةُ

وَقَدْ أَعْجَبَ الرَّبَّانُ بِنَشَاطِي؛ فَاتَّخَذَنِي عَبْدًا لَهُ. وَلَبِثْتُ فِي خِدْمَتِهِ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ، وَأَنَا أَفْكُرُ فِي وَسِيلَةٍ لِلْهَرَبِ فَلَا أُوَفِّقُ. وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَصْحَبُنِي لِأَصْطَادَ مَعَهُ، وَقَدْ وَثِقَ بِي فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ طَلَبَ مِنِّي الرَّبَّانُ أَنْ أَصْطَادَ سَمَكًا لِيَتَعَشَّى بِهِ مَعَ ضَيْوْفِهِ؛ فَرَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِلْهَرَبِ؛ فَقَدْ تَرَكَ لِي الرَّبَّانُ سَفِينَةَ الصَّيْدِ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْحَبُنِي إِلَّا فَتًى رَقِيقٌ، وَرَجُلٌ مِنْ أَقَارِبِ الرَّبَّانِ، فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ: «يَجِبُ أَنْ تَعِدَّ لَنَا زَادًا نَأْكُلُهُ حَتَّى لَا نَشْرَكَ سَيِّدَنَا فِي أَكْلِهِ.»



فَأَقْرَنِي عَلَى هَذَا الرَّأْيِ، وَأَحْضَرَ لَنَا سَلَّةً مِنَ الْفَطَائِرِ الْيَابِسَةِ وَالْخُشْكَنَانِ، ° وَثَلَاثَ
جَرَّاتٍ مَمْلُوءَةٍ مَاءً. وَذَهَبْتُ إِلَى مَخْزَنِ الرُّبَّانِ؛ فَأَحْضَرْتُ مَعِيَ فَاسًّا وَقَدُومًا وَحِبَالًا،
وطلَّبتُ مِنَ الرَّجُلِ أَنْ يُحْضِرَ لَنَا بُنْدُقِيَّاتٍ، وَرِصَاصًا لِنَصْطَادَ بِهَا، فَأَحْضَرَ لِي مَا طَلَبْتُ.
وهكذا أَعْدَدْتُ كُلَّ مُعَدَّاتِ الْهَرَبِ.

° البسكويت.

(٤) الْفِرَارُ

لَقَدْ أَرَمَعْتُ الْفِرَارَ،^٦ وَلَمْ أَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنَ النَّجَاحِ، وَلَكِنِّي أَيقَنْتُ أَنَّ الْعَزِيمَةَ الصَّادِقَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ تَعَرَّضُهَا، مَا دَامَ الْيَأْسُ لَا يَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَيْهَا. وَبَرْنَا مَسَافَةً طَوِيلَةً وَأَنَا أُوهِمُ الرَّجُلَ أَنَّي جَادٌّ فِي تَحْقِيقِ فِكْرَةِ الرُّبَّانِ. ثُمَّ غَافَلْتُهُ وَقَدَفْتُ بِهِ إِلَى الْبَحْرِ — وَكَانَ مَاهِرًا فِي السَّباحَةِ — وَرَأَيْتُهُ يُوشِكُ أَنْ يَلْحَقَ بِي، فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي إِلَى رَأْسِهِ، وَهَدَدْتُهُ بِالْقَتْلِ إِذَا تَتَبَّعَنِي؛ فَاضْطُرَّ لِلرُّجُوعِ إِلَى الشَّاطِئِ، بَعْدَ أَنْ يَيْسَ مِنَ الظَّفَرِ بِي.

وَسَأَلْتُ الْفَتَى: «أَتُعَاهِدُنِي عَلَى الْوَفَاءِ، أَمْ تَعُودُ أَدْرَاكِ كَمَا عَادَ هَذَا الرَّجُلُ؟ فَإِنِّي عَامِلٌ عَلَى قَتْلِكَ إِذَا لَاحَ^٧ لِي مِنْكَ الْغَدْرُ.» فَابْتَسَمَ لِي الْفَتَى، وَأَقْسَمَ: إِنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدَ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِي وَالذَّهَابِ مَعِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ. وَظَلَّلْنَا فِي سَرِيرِنَا خُمْسَةَ أَيَّامٍ، وَالرَّيْحُ مُعْتَدِلَةٌ وَالْبَحْرُ هَادِئٌ وَقَدْ أَيقَنْتُ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَسْتَطِيعَ اللَّحَاقَ بِنَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَمَّا حَانَ الْمَسَاءُ دَنَوْتُ مِنَ الشَّاطِئِ، وَاعْتَزَمْتُ قَضَاءَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ.

(٥) الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ

ثُمَّ خَطَرَنِي أَنْ أَخْرَجَ لَيْلًا إِلَى الشَّاطِئِ لِاتِّعَرَفَ: أَيْنَ نَحْنُ؟ وَلَكِنَّا سَمِعْنَا أَصْوَاتًا مُرَوِّعَةً، وَأَحْسَسْنَا أَنَّ وُحُوشًا تَزَارُ بِالْقُرْبِ مِنَّا؛ فَالَحَ عَلَيَّ الْفَتَى أَلَّا أَغَادِرَ الْمَرْكَبَ حَتَّى لَا نَتَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ.

وَقَضَيْنَا لَيْلَتَنَا سَاهِرَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ، وَنَحْنُ مُتَحَفِّزَانِ^٨ لِدَفْعِ غَارَةِ هَذِهِ الْوُحُوشِ،^٩ إِذَا أَقْبَلَتْ نَحْوَنَا.

^٦ اعتزمت الهرب.

^٧ ظهر.

^٨ متهيئان.

^٩ هجومها.



وَرَأَيْتُ سَرَبًا مِنْهَا يَتَقَدَّمُ إِلَى مَرْكَبِنَا؛ فَأَطْلَقْتُ رَصَاصَةً عَلَى أَحَدِهَا، فَعَادَتِ الْوُحُوشُ
أَدْرَاجَهَا، وَهِيَ تَزْمَجِرُ،^{١٠} وَقَدْ تَمَلَّكَهَا الدُّعْرُ حِينَ سَمِعَتْ دَوِيَّ الرَّصَاصِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا
بِسَمَاعِهِ عَهْدٌ.
وَاشْتَدَّتْ حَاجَتُنَا إِلَى الْمَاءِ؛ فَأَرَادَنِي الْفَتَى عَلَى أَنْ أَبْقَى فِي السَّفِينَةِ، وَأَعْهَدَ إِلَيْهِ أَنْ
يَمْلَأَ الْجِرَّةَ، فَسَأَلْتُهُ: لِمَاذَا يَتَشَبَّثُ^{١١} بِالذَّهَابِ؟

^{١٠} تصيح.

^{١١} يصر.



فَقَالَ لِي: «أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْخَطَرِ وَحْدِي، فَإِذَا قُتِلْتُ فِي الطَّرِيقِ سَهْلَ عَلَيْكَ أَنْ تَنْجُوَ بِنَفْسِكَ.»

فَأَكْبَرْتُ^{١٢} إِخْلَاصَهُ، وَأَبَيْتُ إِلَّا الدَّهَابَ مَعَهُ. وَرَسَوْنَا بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ؛ وَابْتَعَدَ الْفَتَى عَنِّي قَلِيلًا، ثُمَّ عَادَ مُسْرِعًا وَقَدْ اصْطَادَ أَرْنبًا، وَاهْتَدَى إِلَى مَكَانِ الْمَاءِ. وَثُمَّ^{١٣} أَكَلْنَا الْأَرْنبَ مَسْرُورَيْنِ وَاسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ.

^{١٢} عَظُمْتُ.

^{١٣} هُنَاكَ.

(٦) صَيْدُ الْأَسَدِ

وَالْتَفَتَ إِلَى الْفَتَى فَجَاءَ يَحْتَنِينِي^{١٤} عَلَى أَنْ أَبْعُدَ عَنِ الشَّاطِئِ، وَكَانَ بَصَرُهُ حَدِيدًا؛^{١٥} فَلَمَحَتْ أَسَدًا جَائِعًا مِنْ بَعِيدٍ، وَكَانَ ضَخْمَ الْجِسْمِ. وَقَدْ اشْتَدَّ دُغْرُ الْفَتَى مِنْهُ؛ فَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْكُنَ حَتَّى لَا يُنَبِّهَ الْأَسَدَ. ثُمَّ حَشَوْتُ بُنْدُقِيَّاتِي الثَّلَاثَ رِصَاصًا، وَصَوَّبْتُ الْأُولَى إِلَى رَأْسِهِ، وَهُوَ نَائِمٌ. وَكَانَ الْأَسَدُ وَاضِعًا إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى فِيهِ؛^{١٦} فَأَصَابَتْ الرِّصَاصَةُ سَاقَهُ، فَحَطَمَتْ عَظْمَهَا، فَوَقَفَ مَذْعُورًا عَلَى سَوْقِهِ الثَّلَاثِ، وَاشْتَدَّ زَيْبُهُ؛ فَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ رِصَاصَةً ثَانِيَةً، فَخَرَّ^{١٧} صَرِيحًا مُجَدَّلًا^{١٨} يَتَشَحَّطُ^{١٩} فِي دَمِهِ. وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ، فَأَفْرَعَ رِصَاصَةً فِي أُذُنِهِ؛ فَهَمَدَ الْأَسَدُ مِنْ سَاعَتِهِ. وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا فَعَلْتُ؛ فَقَدْ أَضَعْتُ ثَلَاثَ رِصَاصَاتٍ فِي قَتْلَةِ الْأَسَدِ، وَلَيْسَ لَنَا فِي لَحْمِهِ غَدَاءٌ.

وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَقَطَعَ رَأْسَهُ بِفَأْسِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَاكْتَفَى بِقَطْعِ إِحْدَى يَدَيْهِ، وَحَمَلَهَا إِلَى. ثُمَّ تَعَاوَنَّا عَلَى سَلْخِهِ فِي مَدَى يَوْمٍ كَامِلٍ، وَجَفَّقَتْهُ الشَّمْسُ فِي مَدَى يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَبْحَرْنَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ — صَوَّبَ الْجَنُوبَ — وَقَدْ أَوْشَكَ زَادُنَا أَنْ يَنْتَهِيَ. ثُمَّ سَرْنَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَنَحْنُ نَدْعُو اللَّهَ أَنْ نَلْتَقِيَ بِإِحْدَى السُّفُنِ الذَّاهِبَةِ مِنْ «أُورُبَّة» إِلَى «غَانَّة» أَوْ الْآتِيَةِ مِنْ «غَانَّة» إِلَى «أُورُبَّة». وَلَمْ يَكُنْ يُعْزِينَانَا^{٢٠} فِي رِحْلَتِنَا شَيْءٌ سِوَى هَذَا الْأَمَلِ، فَإِذَا أَحْفَقَ فَلَيْسَ أَمَامَنَا إِلَّا الْهَلَاكُ.

^{١٤} يستعجلني.

^{١٥} قَوِيًّا.

^{١٦} فمه.

^{١٧} سقط.

^{١٨} مرتميًا.

^{١٩} يضطرب.

^{٢٠} يصبرنا.



(٧) عَلَى الشَّاطِئِ

وَرَأَيْنَا جَمَاعَةً مِنَ الرِّجَالِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ وَهُمْ عُرَاةٌ. وَقَدْ أَرَدْتُ الذَّهَابَ إِلَيْهِمْ، فَحَوَّلَنِي الْفَتَى عَنْ هَذَا الْعِزْمِ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَسْلِحَةٌ، مَا عَدَا رَجُلًا مِنْهُمْ كَانَ يَحْمِلُ عَصًا صَغِيرَةً. فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي جَائِعٌ، فَطَلَبُوا مِنِّي أَنْ أَرْسُوَ قَرِيبًا. وَأَسْرَعَ اثْنَانِ مِنْهُمْ فَأَحْضَرَا إِلَيَّ خُبْزًا وَقِطْعَتَيْنِ مِنَ اللَّحْمِ بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ.

وَكُنَّا خَائِفَيْنِ مِنْهُمْ، كَمَا كَانُوا خَائِفَيْنِ مِنَّا؛ فَمَا وَضَعَ الرَّجُلَانِ مَا أَحْضَرَاهُ لَنَا عَلَى الشَّاطِئِ حَتَّى تَقْهَقِرَا رَجَاءً أَنْ يَأْمَنَا شَرْنَا. فَلَمَّا أَخَذْنَا الزَّادَ وَرَجَعْنَا إِلَى السَّفِينَةِ، عَادَا إِلَى الشَّاطِئِ عِنْدَ إِخْوَانِهِمَا. وَلَمْ يَكُنْ مَعَنَا مَا نُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ، فَاخْتَفَيْنَا بِشُكْرِهِمْ. وَإِنَّا لَكَذَلِكَ، إِذْ أَقْبَلَ وَحْشَانِ هَائِلَانِ، أَحَدُهُمَا يَجْرِي خَلْفَ الْآخَرِ مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الْبَحْرِ. فَفَرَّ الرَّجَالُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا حَامِلُ الْعَصَا. ثُمَّ هَوَى الْوَحْشَانِ إِلَى الْبَحْرِ يَسْبَحَانِ وَيُلْهُوَانِ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَحَدُهُمَا إِلَى مَرْكَبِنَا حَتَّى كَادَ يَدَانِنَا. فَأَطْلَقْتُ رَصَاصَةً عَلَى رَأْسِهِ؛

فَصَرَعَتْهُ مِنْ قَوْرِهِ. ٢١ وَظَلَّ يَهْوِي إِلَى الْقَاعِ مَرَّةً، وَيَطْفُو ٢٢ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى، وَهُوَ يَغْدُو ٢٣ نَحْوَ الشَّاطِئِ. وَلَكِنَّهُ مَاتَ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، وَهَرَبَ الْحَيَوَانُ الْآخَرُ إِلَى الْجَبَلِ. وَضَجَّ الرِّجَالُ إِعْجَابًا بِنَا، وَدَهْشَةً مِنَّا. عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ اشْتَدَّ رُغْبُهُمْ، وَسَقَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ الدُّعْرِ، فَأَشْرْتُ إِلَيْهِمْ لِأَطْمَئِنَّهُمْ حَتَّى زَالَ خَوْفُهُمْ، وَسَكَتَتْ نَفْسُهُمْ.

ثُمَّ تَعَاوَنُوا عَلَى سَلْخِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ، وَقَدَّمُوا إِلَيَّ جُزْءًا مِنْ لَحْمِهِ لِأَكْلِهِ؛ فَلَمْ أَقْبَلْهُ، وَشَكَرْتُ لَهُمْ ذَلِكَ، وَاکْتَفَيْتُ بِجِلْدِ الْحَيَوَانِ، فَأَعْطَوْنِيهِ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ زَادِهِمْ. فَقَبِلْتُ هَدِيَّتَهُمْ شَاكِرًا مَسْرُورًا، ثُمَّ أَشْرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَاءِ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْجِرَّةَ فَارِعَةً. فَفَهَّمُوا مَا طَلَبْتُ، وَمَلَأُوهَا لِي مِنْ قَوْرِهِمْ ثُمَّ حَبَيْتُهُمْ وَانْصَرَفْتُ مُسْتَأْنَفًا ٢٤ سِرِّي نَحْوَ الْجَنُوبِ. وَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا.

(٨) الْأَمَلُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَكَانَ مَرْكَبِي يَسِيرُ فِي الْبَحْرِ مُعْتَسِفًا، ٢٥ وَقَدْ كِدْتُ أَفْقِدُ الْأَمَلَ فِي النِّجَاةِ. وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي إِلَى أَيِّ مَكَانٍ أَذْهَبُ؟ وَأَيَّ غَايَةٍ أَيْمُمُ ٢٦؟ وَاشْتَدَّ ارْتِبَاكِي، وَزَادَ نَدَمِي عَلَى مَا أَسْلَفْتُ مِنْ عِصْيَانِ وَالِدِي. وَذَكَرْتُ مَا جَرَّبَنِي إِلَيْهِ الْغُرُورُ وَالْحِمَاقَةُ؛ فَاسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ نَادِمًا عَلَى مَا فَرَطَ مِنِّي، وَدَعَوْتُهُ أَنْ يُبَيِّنَ لِي طَرِيقَ الْخَلَاصِ.

وَإِنِّي لَغَارِقٌ فِي هَذِهِ التَّأْمَلَاتِ إِذْ أَقْبَلَ الْفَتَى عَلَيَّ وَهُوَ يَصِيحُ، وَقَدْ كَادَ الْخَوْفُ يَعْقِدُ لِسَانَهُ: «انْظُرْ هَذِهِ السَّفِينَةَ الْكَبِيرَةَ يَا سَيِّدِي، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ سَفِينَةَ الرُّبَّانِ». أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْنَا.

٢١ قتلته للحال.

٢٢ يعلو.

٢٣ يجري.

٢٤ عائدًا إلى.

٢٥ ضالًّا على غير هدى.

٢٦ أقصد.



وَمَا رَأَيْتُ السَّفِينَةَ حَتَّى عَرَفْتُ، عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَةِ، أَنَّهَا بُرْتُغَالِيَّةٌ.

وَبَذَلْتُ جُهِدِي فِي الدُّنُو^{٢٧} مِنَ السَّفِينَةِ لِأَتَعَرَّفَ رَاكِبِيهَا فَلَمْ أَفْلِحْ؛ فَيَبَسْتُ مِنَ اللَّحَاقِ بِهِمْ.
وَلَكِنْ أَحَدَهُمْ رَأَيْتُ بِمِجْهَرِهِ^{٢٨} وَقَدْ أَطْلَقْتُ بُنْدُقِيَّتِي، لِأَشْعِرَهُمْ أَنَّنِي فِي خَطَرٍ.
وَقَدْ اسْتَطَعْتُ بَعْدَ جُهِدٍ كَبِيرٍ أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ.
وَمَا عَرَفُوا قِصَّتِي، حَتَّى أَكْرَمُوا وَفَادَتِي؛^{٢٩} فَأَهْدَيْتُ إِلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ كُلِّ مَا مَعِيَ،
فَلَمْ يَقْبَلْ شَيْئًا جَزَاءً لَهُ عَلَى صُنْعِهِ.
وَقَدْ فَاضَ قَلْبِي سُرُورًا بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ أَمَلِي فِي النِّجَاةِ.

^{٢٧} القرب.

^{٢٨} بمنظاره المكبر.

^{٢٩} قدومي.

(٩) فِي الطَّرِيقِ إِلَى «الْبَرَزِيلِ»

وكانت السفينة ذاهبة إلى «البرازيل». وقد حَظَرَ الرُّبَّانُ عَلَى الْمَلَّاحِينَ أَنْ يَمْسُوا شَيْئًا مِنْ مَتَاعِي. وقد اشترى مَرْكَبِي بِثَمَانِينَ جُنَيْهًا، واشترى الْفَتَى مِنْي بِسِتِّينَ جُنَيْهًا. وَلَمْ يَكُنْ بَيْعُ الْفَتَى الْمُسْكِينِ بِمَحْضِ رَغْبَتِي،^{٣٠} وما كَانَ لِيَرْضِيَنِي أَنْ أَتْرَكُهُ رَقِيقًا،^{٣١} وَلَكِنَّ الرُّبَّانَ وَعَدَنِي بِإِطْلَاقِ سَرَاجِهِ^{٣٢} بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، فَقَبِلْتُ ذَلِكَ مُرْعَمًا. وكانت رَحْلَةً سَعِيدَةً مُرِيحَةً مُوَفَّقَةً. وقد وصلنا إلى «البرازيل» بَعْدَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا.

(١٠) فِي «الْبَرَزِيلِ»

وقد عَرَفَنِي الرُّبَّانُ بِأَحَدِ أَعْيَانِ «الْبَرَزِيلِ» — وكان يَمْلِكُ مَزْرَعَةً لِلْقَصَبِ وَمَصْنَعًا لِلسُّكَّرِ — وَأَوْصَاهُ بِي خَيْرًا؛ فَشَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ عِنَايَتَهُ بِي وَفَضْلَهُ عَلَيَّ. وَنَفَعَتْنِي صُحْبَةُ هَذَا الزَّارِعِ الْكَرِيمِ؛ فَقَدْ عَلَّمَنِي كَيْفَ أَرْزَعُ الْقَصَبَ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ مِنْهُ السُّكَّرَ. وما مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ أَعوامٍ حَتَّى نَجَحْتُ أَعْمَالِي كُلُّهَا، وَأَصْبَحْتُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ. وَكُنْتُ كُلَّمَا ذَكَرْتُ وَطَنِي تَأَلَّمْتُ لِإِفْرَاقِهِ، وَاشْتَدَّ حَزِينِي إِلَيْهِ، وَنَدِمْتُ عَلَى تَرْكِهِ.

وَتَعَرَّفْتُ — فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِي — بِكَثِيرٍ مِنَ الزَّارِعِينَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ. فَكُنَّا نَسْمُرُ^{٣٣} فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، وَكُنْتُ أَذْكَرُ لَهُمْ مَا وَقَعَ لِي فِي أَثْنَاءِ رِحْلَتِي إِلَى «غَانَّة»؛ وَكَيْفَ ظَفِرْتُ بِأَمْوَالٍ طَائِلَةٍ مِنَ الْأَتِّاجَارِ بِأَشْيَاءَ تَافِهَةٍ كَالْمَقْصَّاتِ وَالْمُدَى^{٣٤} وَالْمَرَايَا وَمَا إِلَى ذَلِكَ، فَاشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُمْ فِي السَّفَرِ إِلَى «غَانَّة»، وَأَعَدُّوا سَفِينَةً كَبِيرَةً، وَطَلَبُوا إِلَيَّ أَنْ أُرَافِقَهُمْ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ؛ فَعَاوَدَنِي

^{٣٠} خالص إرادتي.

^{٣١} عبدًا.

^{٣٢} تركه حرًا.

^{٣٣} نتحدث ليلاً.

^{٣٤} السكاكين.

الْحَنِينُ إِلَى الْبَحْرِ، وَعَهْدْتُ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِي أَنْ يُعْنَى بِمَزْرَعَتِي وَمَصْنَعِي فِي أَثْنَاءِ غِيَابِي.

ثُمَّ أَبْحَرْتُ بِنَا السَّفِينَةَ فِي أَوَّلِ سِبْتَمْبَر/أَيْلُول ١٦٥٩ م، وَهُوَ نَظِيرُ الْيَوْمِ الَّذِي غَادَرْتُ فِيهِ وَطَنِي وَاسْتَقْبَلْتُ بِهِ عَهْدَ الشَّقَاءِ، مُنْذُ ثَمَانِيَةِ أَعْوَامٍ.

فِي جَزِيرَةِ نَائِيَةِ

(١) هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ

كَانَتْ السَّفِينَةُ الَّتِي أَعَدَدْنَاهَا^١ لِهَذِهِ الرَّحْلَةِ سَفِينَةً كَبِيرَةً، قَادِرَةً عَلَى حَمْلِ مِائَةِ وَعِشْرِينَ طُنًا. وَقَدْ زَوَّدْنَاهَا بِسِتَّةِ مَدَافِعَ، وَاخْتَرْنَا لَهَا أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ مَلَّاحًا. وَقَدْ وَضَعْنَا فِيهَا الْبُضَائِعَ الَّتِي شَرَيْنَاهَا لِنَتَجَرَ بِهَا فِي بِلَادِ «إِفْرِيقِيَّة»، وَهِيَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مَقْصَّاتٍ وَفُتُوسٍ وَمَطَارِقَ وَمَرَايَا صَغِيرَةٍ وَأَزْرَّةٍ لِلْمَلَابِسِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ. ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ مِئَمَّةً^٢ شَاطِئِ «إِفْرِيقِيَّة».

وَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنَا — فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ عَشَرَ — عَاصِفَةٌ هَوْجَاءُ لَبِثَتْ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، لَا تَهْدَأُ إِلَّا رَيْثَمَا تَشْتَدُّ وَتَعْنَفُ، وَلَا تَمُرُّ بِنَا لَحْظَةً إِلَّا أَنْذَرْتَنَا بِالْغَرَقِ.

وَهَكَذَا ظَلَلْنَا نَتَرَقَّبُ الْهَلَكَ بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ، بَعْدَ أَنْ ضَلَلْنَا طَرِيقَنَا فِي الْبَحْرِ، خِلَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي هَبَّتْ فِيهَا الْعَاصِفَةُ.

(٢) زَوْرُقُ النِّجَاةِ

ثُمَّ رَأَيْنَا — عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ — أَرْضًا تَبْدُو لَنَا مِنْ بَعِيدٍ؛ فَلَاحَ لَنَا أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي النِّجَاةِ. وَلَكِنَّا لَمْ نَلْبَثْ أَنْ فَقَدْنَا ذَلِكَ الْأَمَلَ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ، فَقَدْ قَذَفَتِ الْعَاصِفَةُ

^١ هَيَأْتَانَهَا.

^٢ قَاصِدَةٌ.



بِسَفِينَتِنَا إِلَى كَثِيبٍ^٢ مِنَ الرَّمْلِ. وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ قَوِيَّةً عَنِيفَةً؛ فَتَعَطَّلَتِ السَّفِينَةُ، وَغَمَرَتْهَا
الْأَمْوَاجُ الْهَائِجَةُ؛ فَلَمْ نَجِدْ مِنَ الْهَلَاكِ بَدْءًا، وَعَرَفْنَا أَنَّ آخِرَتَنَا قَدْ دَنَتْ.
عَلَى أَنَّنا لَمْ نَسْتَثْلِمِ لِلْيَأْسِ؛ فَأَسْرَعْنَا إِلَى زَوْرَقِ النِّجَاةِ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْبَحْرِ، وَبَدَلْنَا كُلَّ
مَا فِي وُسْعِنَا لِلْخَلَاصِ. وَظَلَلْنَا نَجْدُفُ بِكُلِّ قُوَانَا، حَتَّى أَصْبَحْنَا عَلَى مَسَافَةٍ مِيلٍ وَنِصْفٍ

^٢ تل.



مِيلٍ مِنَ الشَّاطِئِ، حَيْثُ دَهَمْتُنَا، مَوْجَةٌ طَاحِنَةٌ؛ فَخِيلَ إِلَيْنَا أَنْ جَبَلًا مِنَ الْمَاءِ قَدْ انْقَضَّ °
عَلَيْنَا، فَاِنْقَلَبَ الزُّورَقُ فِي الْحَالِ.
وَلَمْ أَرِ بِجَانِبِي أَحَدًا مِنْ رِفَاقِي، وَلَمْ أَعْلَمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَصِيرَهُمْ. ٦

(٣) النِّجَاةُ مِنَ الْغَرَقِ

أَمَّا أَنَا فَقَدْ لَعِبْتُ بِبَيِّ الْأَمْوَاجِ، ثُمَّ قَذَفْتُ بِي إِلَى صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ عَنِيفَةً،
فَأُغْمِيَ عَلَيَّ، ثُمَّ أَفْقَتُ بَعْدَ قَلِيلٍ. وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّنِي أَفْقَتُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ الْبَحْرُ
تَوَرَّتَهُ.

٤ غمرتنا.

٥ سقط.

٦ نهايتهم.

وَمَا رَأَيْتُ الْمَوْجَةَ قَادِمَةً عَلَيَّ — لِيَتَّبِعَنِي فِي طَيْهَا — حَتَّى أَمْسَكْتُ بِالصَّخْرَةِ
مُتَشَبِّهًا بِكُلِّ قُوَّتِي، حَتَّى تَنْحَدِرَ^٧ الْمِيَاهُ عَنِّي.
ثُمَّ هَذَا ثَائِرَةُ الْبَحْرِ قَلِيلًا؛ فَحَاوَلْتُ إِمْكَانِي، وَبَذَلْتُ جُهْدِي، حَتَّى بَلَغْتُ الشَّاطِئَ،
وَأَنَا لَا أَكَادُ أَصَدِّقُ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ.

(٤) بَعْدَ النِّجَاةِ

وَشَعَرْتُ بِفَرْحٍ شَدِيدٍ حِينَ رَأَيْتُنِي قَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ. وَأَجَلْتُ لِحَاطِي^٨ فِي أَنْحَاءِ الْبَحْرِ،
أَتَلَمَّسُ رُؤْيَا أَحَدٍ مِنْ رِفَاقِي؛ فَلَمْ أَرَ إِلَّا قُبَعَاتٍ ثَلَاثًا، وَقَلَنْسُوَةً^٩ وَنَعْلًا، طَافِيَةً عَلَى سَطْحِ
الْمَاءِ. فَأَيَّقَنْتُ أَنَّ رِفَاقِي جَمِيعًا قَدْ هَلَكُوا، وَلَمْ تُكْتَبْ لَهُمُ النِّجَاةُ.
وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمَوْتِ هَؤُلَاءِ الْأَصْحَابِ، كَمَا تَأَلَّمْتُ لِنَفْسِي أَيْضًا؛ فَقَدْ كُنْتُ — حِينَئِذٍ —
فِي حَالٍ يَزِيئُ لَهَا،^{١٠} فَثِيَابِي مُبْتَلاَةٌ، وَلَيْسَ مَعِيَ ثِيَابٌ أَسْتَبْدِلُهَا بِهَا.
وَشَعَرْتُ بِالْأَلَمِ الْجُوعِ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أَتَبَلَّغُ بِهِ.^{١١} وَالْحَ^{١٢} عَلَيَّ الضَّعْفُ، وَتَخَاذَلَتْ
أَعْضَائِي، وَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا لِاسْتِرْدَادِ قُوَّاي بَعْدَ أَنْ أَضْنَاهَا التَّعَبُ وَالْكِفَاحُ.

(٥) بَيْنَ أَغْصَانِ شَجَرَةٍ

وَحَشِيتُ أَنْ يَذْهَمَنِي^{١٣} اللَّيْلُ؛ فَأَصْبَحَ فَرِيَسَةً لِلْوُحُوشِ، وَلَيْسَ مَعِيَ سِلَاحٌ أَصْطَادُ بِهِ
— مِنَ الْحَيَوَانِ — مَا أَقَاتُ بِهِ، أَوْ أَدْفَعُ بِهِ عَنِّي غَائِلَةَ الْوُحُوشِ الْعَادِيَةِ^{١٤} إِذَا حَاوَلَتْ

^٧ تنصرف.

^٨ أدرت عيني.

^٩ غطاء رأس.

^{١٠} تدعو إلى الشفقة.

^{١١} ما أستبقي به الحياة من الطعام.

^{١٢} اشتد.

^{١٣} يفاجئني.

^{١٤} شر الحيوانات المفترسة.



افْتَرَّاسِي. فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ — حِينَئِذٍ — عَيْرٌ مُدِيَّةٌ^{١٥} لَا غَنَاءَ فِيهَا.^{١٦} فَتَمَثَّلَ لِي حَرْجٌ مَرَكَزِي،
وَرَأَيْتُ الْمُسْتَقْبَلَ مَرْهُوبًا^{١٧} مُظْلَمًا. وَصِرْتُ أَعْدُو^{١٨} فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ أَذْهَلَنِي الْفَزَعُ،
وَأُنْسَانِي الْخَوْفُ كُلَّ شَيْءٍ.

^{١٥} سَكِينَةٌ.

^{١٦} لَا فَائِدَةَ مِنْهَا.

^{١٧} مَخُوفًا.

^{١٨} أُجْرِي.

ثُمَّ أَقْبَلَ اللَّيْلُ؛ فَاشْتَدَّ رُعْبِي، وَلَمْ أَجِدْ لِي مَنَاصًا^{١٩} مِنَ التَّفَكِيرِ فِي مَكَانِ نَوْمِي، فَتَخَيَّرْتُ شَجَرَةً كَبِيرَةً بِالْقُرْبِ مِنِّي، وَجَلَسْتُ بَيْنَ أَغْصَانِهَا الْمُشْتَبِكَةِ. وَكُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ؛ فَغَلَبَنِي النَّوْمُ طَوْلَ لَيْلِي، وَلَمْ أُسْتَيْقِظْ إِلَّا فِي ضُحَى الْغَدِ؛ فَرَأَيْتُ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً، وَالْجَوَّ صَحْوًا، وَالْبَحْرَ هَادِنًا جَمِيلًا.



(٦) السَّفِينَةُ

وَأَجَلْتُ لِحَاطِي^{٢٠} فِي أَرْجَاءِ الْبَحْرِ؛ فَاشْتَدَّتْ دَهْشَتِي حِينَ رَأَيْتُ السَّفِينَةَ جَائِمَةً^{٢١} عَلَى بُعْدٍ مِيلٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ. وَكَانَ الْمَدُّ^{٢٢} قَدْ أَخْرَجَهَا مِنَ الْكُثِيبِ،^{٢٣} وَقَذَفَ بِهَا قَرِيبًا مِنَ الصَّخْرَةِ

^{١٩} نَجَاة.

^{٢٠} دُرْتُ بِبَصْرِي.

^{٢١} بَاقِيَةٌ.

^{٢٢} امْتِدَادُ الْمَاءِ.

^{٢٣} التَّلُّ مِنَ الرَّمْلِ.

الَّتِي قَدَفْتَنِي إِلَيْهَا الْأَمْوَاجُ أَمْسٍ. فَعَنَّ^{٢٤} لِي رَأْيِي سَدِيدٌ،^{٢٥} ذَلِكَ: هُوَ أَنْ أُسْرِعَ إِلَيْهَا، فَأَخَذَ مِنْهَا أَمَّهُ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ، قَبْلَ أَنْ تَطْغَى الْأَمْوَاجُ عَلَى السَّفِينَةِ، وَيَطْوِيَهَا الْبَحْرُ فِي قَرَارِهِ. وَشَجَّعَنِي عَلَى ذَلِكَ هُدُوءُ الْبَحْرِ وَانْخِفَاضُ الْمَدِّ. وَكَانَتِ الْحَرَارَةُ شَدِيدَةً وَقَتِ الظَّهِيرَةِ؛ فَخَلَعْتُ ثِيَابِي، وَسَبَحْتُ فِي الْمَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ السَّفِينَةَ. وَدُرْتُ حَوْلَهَا؛ فَلَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً لِلصُّعُودِ إِلَيْهَا لِارْتِفَاعِهَا. وَقَدْ كِدْتُ أَيَّاسٌ مِنْ إِدْرَاكِ هَذِهِ الْغَايَةِ، لَوْلَا أَنَّني ظَفَرْتُ بِحَبْلٍ مُتَدَلٍّ؛ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ حَتَّى صَعَدْتُ إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ. وَرَأَيْتُ الْمَاءَ قَدْ نَفَذَ إِلَى أَرْضِ السَّفِينَةِ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ سَطْحَهَا، وَلَمْ يَتْلَفْ كُلُّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ مَتُونَةٍ وَذَخَائِرٍ. وَكَانَ أَوَّلَ مَا يَشْغَلُنِي — حِينَئِذٍ — هُوَ الْبَحْثُ عَنِ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ. فَأَكَلْتُ مِنَ الزَّادِ حَتَّى شَبِعْتُ، وَشَرِبْتُ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى ارْتَوَيْتُ.

(٧) الْمَرْكَبُ الصَّغِيرُ

وَلَمْ أَضِعْ وَقْتِي عَبَثًا، فَأَسْرَعْتُ إِلَى جَمْعِ الْأَلْوَاكِ الْمُتَنَازِرَةِ، وَالْأَعْمَدَةِ الْمُحَطَّمَةِ، وَالْأَشْرَعَةِ الْمُمَرَّقَةِ، وَاللَّفْتُ مِنْهَا مَرْكَبًا صَغِيرًا. ثُمَّ كَسَرْتُ ثَلَاثَةَ صَنَادِيقٍ وَأَفْرَعْتُ مَا فِيهَا. ثُمَّ أَنْزَلْتُهَا بِالْحِبَالِ إِلَى ذَلِكَ الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ، وَمَلَأْتُهَا بِالْخُبْزِ وَالرُّزِّ وَالْجُبْنِ وَالْقَدِيدِ^{٢٦} وَرَأَيْتُ فِي الْمَخْزَنِ كَمِيَّةً قَلِيلَةً مِنَ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَالْبُرْغُلِ، كُنَّا قَدْ أَحْضَرْنَاهَا لِتَغْذِيَةِ طُيُورِنَا وَدَوَاجِنَا؛ فَوَضَعْتُهَا فِي أَحَدِ الصَّنَادِيقِ. وَإِنِّي لَمُنْهَمِكٌ فِي عَمَلِي، إِذْ لَاحَتْ مِنِّي التِّفَاتَةُ؛ فَرَأَيْتُ الْمَدَّ يَرْتَفِعُ إِلَى الشَّاطِئِ وَيَجْذِبُ ثِيَابِي الْغَرِيقَةَ. وَقَدْ تَأَلَّمْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا طَافِيَّةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ.

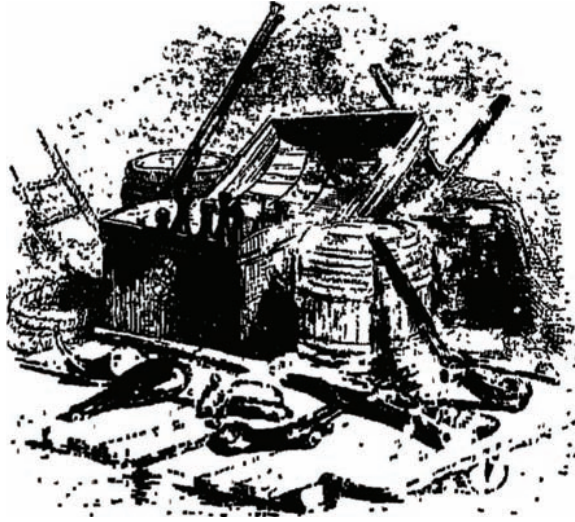
^{٢٤} خطر.

^{٢٥} صائب.

^{٢٦} اللحم اليابس المحفوظ.



عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ فِي السَّفِينَةِ — مِنَ الثِّيَابِ — مَا عَوَّضَنِي عَنْهَا. فَأَخَذْتُ مِنْهَا مَا اسْتَطَعْتُ،
وَحَمَلْتُ مَعِيَ — مِنَ الْأَلَاتِ وَالْعِدَدِ — مَا لَا غِنَى لِي عَنْهُ. وَقَدْ ظَفَرْتُ بِصُنْدُوقِ نَجَّارٍ؛
فَكَانَ عِنْدِي أُثْمَنَ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً،^{٢٧} فَأَلْقَيْتُ بِهِ فِي الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ.



وَضَفَرْتُ — فِي أَتْنَاءِ بَحْثِي — بِمُسَدَّسَيْنِ وَبُنْدُقِيَّتَيْنِ وَسَيْفَيْنِ قَدِيمَيْنِ يَغْلُوهُمَا الصَّدَأُ،
 وَكَيْسٍ مِنَ الرِّصَاصِ، وَعِدَّةُ أَكْيَاسٍ مِنَ الْبَارُودِ.
 وَكَانَ بِالسَّفِينَةِ بِرَامِيلٍ ثَلَاثَةٌ مَمْلُوءَةٌ بَارُودًا، فَبَحَثْتُ عَنْهَا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْهَا؛ فَرَأَيْتُ
 الْمَاءَ قَدْ أَتْلَفَ بَرْمِيلًا مِنْهَا. فَحَمَلْتُ الْبَرْمِيلَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ إِلَى الْمَرْكَبِ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ
 أَذْهَبَ بِمَرْكَبِي إِلَى الشَّاطِئِ. وَضَفَرْتُ — بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيلٍ — بِثَلَاثَةِ مَجَادِيفَ مُحَطَّمَةٍ،
 وَمِنْشَارَيْنِ وَمِطْرَقَةٍ؛ فَاسْتَوَدَعْتُهَا سَفِينَتِي.^{٢٨}
 وَحَمَلَنِي الْمُدُّ إِلَى الشَّاطِئِ، حَيْثُ انْتَهَى بِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي
 حَلَلْتُ فِيهِ أُمْسٍ.

^{٢٨} حفظتها فيها.



الفصل الرابع

الوطن الجديد

(١) عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ

كَانَ أَوَّلَ مَا عُنِيْتُ بِهِ أَنْ أُرْتَادَ^١ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَجْهُولَةَ الَّتِي قَدَفْتَنِي إِلَيْهَا الْمَقَادِيرُ، لَعَلِّي أَهْتَدِي إِلَى مَسْكَنِ آوِي إِلَيْهِ.

وَكُنْتُ — حِينِنِذْ — أَجْهَلُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ، فَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ: هَلْ قَدَفْتَنِي الْأَمْوَاجُ إِلَى جَزِيرَةٍ أَمْ قَارَّةٍ؟ إِلَى أَرْضٍ مَأْهُولَةٍ، أَمْ مُوحَشَةٍ؟ إِلَى مَكَانٍ أَمِينٍ مُطْمَئِنٍّ، أَمْ مَخُوفٍ مَرْهُوبٍ؟ إِلَى أَرْضٍ يَقْطُنُهَا الْمُتَحَضِّرُونَ، أَمْ الْهَمَجُ، أَمْ الْوُحُوشُ الْمُفْتَرَسَةُ؟ وَأَجَلْتُ لِحَاظِي فِي أَنْحَائِهَا؛ فَرَأَيْتُ جَبَلًا شَاهِقًا يُلُوحُ لِي عَلَى مَسَافَةٍ مِيلٍ تَقْرِبًا، فَأَخَذْتُ بُنْدُوقِيَّ وَمُسَدَّسًا، وَسِرْتُ حَتَّى بَلَغْتُهُ فَرَأَيْتُهُ وَعَرَ الْمُرْتَقَى^٢، وَلَمْ أَبْلُغْ قِمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ. وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْحُزْنُ وَالْأَلَمُ، إِذْ عَرَفْتُ أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي حَلَلْتُهُ لَيْسَ إِلَّا جَزِيرَةً. وَكُنْتُ — كَيْفَمَا أَدْرْتُ لِحَاظِي — لَا أَجِدُ إِلَّا الْبَحْرَ يَكْتَنِفُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ،^٣ وَشَبَحَ جَزِيرَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ تَلُوحَانِ لِي عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ غَرْبًا.

^١ أتعرف.

^٢ صعب المصعد.

^٣ يحيط بها.

وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ الَّتِي حَلَلْتُهَا عَارِزَةً^٤، قَفَرَاءَ غَيْرِ مَأْهُولَةٍ،^٥ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهَا
وُحُوشٌ مُفْتَرَسَةٌ. أَمَّا الْإِنْسُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى وُجُودِهِمْ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُجْدِبَةِ الْقَاحِلَةِ^٦.

(٢) الطَّلَقَةُ الْأُولَى

عَلَى أَنَّي رَأَيْتُ جَمَهَرَةً^٧ مِنَ الطُّيُورِ الْغَرِيبَةِ — وَأَنَا عَائِدٌ إِلَى حَيْثُ جِئْتُ — فَصَوَّيْتُ
بُنْدُقِيَّتِي إِلَى طَائِرٍ مِنْهَا كَانَ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ الْغَابَةِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي.
وَلَعَلَّ هَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ تَطْلُقُ فِيهَا بُنْدُقِيَّةٌ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ!
وَقَدْ دُعِرَتِ الطُّيُورُ حِينَ سَمِعَتْ هَذِهِ الطَّلَقَةَ الْمُفْرَعَةَ، وَاشْتَدَّ ارْتِبَاكُهَا، وَعَلَتْ
صَيِّحَاتُهَا. وَرَأَيْتُ هَذَا الطَّائِرَ يُشَبِّهُ الْبَاشِقَ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ اللَّحْمِ، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مَنْ
جُوعَ.

(٣) كُوْخٌ مِنْ صَنَادِيقَ

ثُمَّ عُدْتُ أَدْرَاجِي^٨ وَظَلَلْتُ أَفْرِغُ مَا أَحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ وَأَرْتَبُهُ، حَتَّى انْقَضَى النَّهَارُ،
وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ؛ فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَنَا مُطْمَئِنًّا، أَمَّا مِنْ غَارَةِ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرَسَةِ؟ ثُمَّ اهْتَدَيْتُ —
بَعْدَ افْتِكَارٍ طَوِيلٍ — إِلَى طَرِيقَةٍ نَاجِحَةٍ؛ فَأَدْنَيْتُ^٩ الصَّنَادِيقَ الَّتِي أَحْضَرْتُهَا مِنَ السَّفِينَةِ،
ثُمَّ اتَّخَذْتُ مِنْهَا كُوْخًا آوِي إِلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. وَرَأَيْتُنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى حِبَالِ السَّفِينَةِ
وَأَشْرَعْتُهَا؛ فَنَوَيْتُ الذَّهَابَ إِلَيْهَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي وَفَتَّ اخْتِصَافِ الْمَدِّ، قَبْلَ أَنْ تُغْرِقَهَا أَوَّلُ
عَاصِفَةٍ تَهْبُّ عَلَيْهَا مِنَ الْبَحْرِ.

^٤ بعيدة.

^٥ لا يسكنها أحد.

^٦ التي لا نبات فيها.

^٧ جماعة.

^٨ رجعت من حيث أتيت.

^٩ قربت.

(٤) عَوْدَةُ إِلَى السَّفِينَةِ

وَلَمَّا جَاءَ الْغَدُ خَلَعْتُ مَلَابِسِي إِلَّا قَمِيصًا مُمَرَّقًا وَسِرْوَالًا وَنَعْلًا خَفِيفَةً، وَذَهَبْتُ إِلَى السَّفِينَةِ، وَأَحْضَرْتُ مِنْهَا كَثِيرًا مِنَ الذَّخَائِرِ^{١٠} الَّتِي كُنْتُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. وَقَدْ ظَفَرْتُ بِغِرَارَتَيْنِ^{١١} مَمْلُوءَتَيْنِ مَسَامِيرَ، كَمَا ظَفَرْتُ بِعُدَّةِ النَّجَارَةِ، وَفِيهَا مِسْنٌ، وَاثْنَتَا عَشْرَةَ قَدُومًا، وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَجَمَعْتُ كُلَّ مَا وَجَدْتُهُ — مِنَ الثِّيَابِ وَأَشْرَعَةِ السَّفِينَةِ وَالْأَعْطِيَةِ — وَعُدْتُ إِلَى كُوْخِي الصَّغِيرِ وَقَدْ شَجَعَنِي هَذَا النَّجَاحُ، وَأَكْسَبَنِي قُوَّةً وَنَشَاطًا عَظِيمَيْنِ. وَكُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَلْتَهُمَ بَعْضُ الْوُحُوشِ مَا تَرَكَتُهُ مِنَ الزَّادِ،^{١٢} وَلَكِنِّي اطمأننتُ — بَعْدَ عَوْدَتِي — وَزَالَتْ مَخَافِي؛ إِذْ لَمْ أَعْثُرْ لِهَذِهِ الْوُحُوشِ عَلَى أَثَرٍ. عَلَى أَنَّي رَأَيْتُ حَيَوَانًا — أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْقِطِّ — جَالِسًا عَلَى أَحَدِ الصَّنَادِيقِ. وَمَا رَأَيْتُ حَتَّى فَرَمْنِي، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بُعْدِ خُطَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَظَلَّ يُنْعِمُ^{١٣} نَظْرَهُ فِيَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْدُوَ عَلَى مَلَامِحِهِ الْخَوْفُ. فَصَوَّبْتُ إِلَيْهِ بُنْدُقِيَّتِي، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ، وَلَمْ يُحَاوِلِ الْفِرَارَ. فَالْقَيْتُ إِلَيْهِ قِطْعَةً مِنَ الْحَشَكَّانِ،^{١٤} فَاقْتَرَبَ مِنْهَا وَشَمَّهَا وَتَذَوَّقَهَا، ثُمَّ ابْتَلَعَهَا مِنْ فَوْرِهِ، وَبَدَأَ عَلَى مَلَامِحِهِ السُّرُورَ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَطْلُبُ غَيْرَهَا، فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئًا، لِأَنَّ زَادِي قَلِيلٌ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أُسْرِفَ^{١٥} فِي الْأَخْذِ مِنْهُ. وَلَمَّا يَبَسَ الْقِطُّ مِنْ عَطَائِي ذَهَبَ إِلَى سَبِيلِهِ.

(٥) إِعْدَادُ الْمَسْكَنِ

وَفَكَّرْتُ فِي إِعْدَادِ مَسْكَنِ يُؤْمِنُنِي مِنَ الْوُحُوشِ، وَيَحْفَظُ أَمْنِيَّ مِنَ التَّلَفِ، وَيَقِيهَا غَائِلَةَ الْأَمْطَارِ وَحَرَارَةِ الشَّمْسِ. فَبَنَيْتُ خِيْمَةً مِنَ الشَّرَاكِ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ، وَنَبَتُّهَا بِالْأَوْتَادِ،^{١٦}

^{١٠} الأشياء الثمينة المحفوظة.

^{١١} زكبيتين.

^{١٢} الطعام الذي يتخذ للسفر.

^{١٣} يذقق.

^{١٤} البسكويت.

^{١٥} أكثر.

^{١٦} قطع من الخشب ونحوه مثبتة في الأرض.

وَوَضَعْتُ فِي تِلْكَ الْخَيْمَةِ كُلَّ مَا أَحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ. ثُمَّ سَوَّرْتُ الْخَيْمَةَ^{١٧} بِالصَّنَائِقِ وَالْبَرَامِيلِ، وَسَدَدْتُ بَابَهَا مِنَ الدَّاخِلِ بِاللُّوْحِ مِنَ الْخَشَبِ، وَوَضَعْتُ خَلْفَهَا صُنْدُوقًا فَارِعًا. ثُمَّ وَضَعْتُ مُسَدَّسَيْنِ تَحْتَ وَسَادَتِي، وَنِمْتُ أَهْدَأَ مَا أَكُونُ بَالًا حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.

(٦) ذَخَائِرُ السَّفِينَةِ

وَلَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّي حَصَلْتُ عَلَى مَا يَكْفِينِي، بَلْ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَتِي. وَلَكِنْ بَقَاءَ السَّفِينَةِ أَطْمَعَنِي فِي الْحُصُولِ عَلَى كُلِّ ذَخَائِرِهَا، مَا دُمْتُ قَادِرًا عَلَى الذَّهَابِ إِلَيْهَا، فَلَمْ يَهْدَأْ لِي بَالٌ، وَلَمْ يَقِرْ لِي قَرَارٌ. وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى التَّزَوُّدِ^{١٨} مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ. وَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْهَا — بَعْدَ ذَلِكَ — سِتَّةَ أَيَّامٍ مُتَعاقِبَةً،^{١٩} وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّي قَدْ أَفْرَعْتُ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ زَادٍ وَذَخَائِرٍ. وَلَكِنِّي دُهِشْتُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ؛ إِذْ وَجَدْتُ بِرَمِيلاً كَبِيراً مَمْلُوءًا خُشْكَنًا^{٢٠}. فَأَفْرَعْتُهُ، بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُهُ فِي قِطْعٍ مِنَ الْأَشْرَعَةِ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى خِيَمَتِي مَسْرُورًا رَاضِيًا.

(٧) الزُّورَةُ الْأَخِيرَةُ

وَذَهَبْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى السَّفِينَةِ — كَعَادَتِي — وَلَكِنِّي شَعَرْتُ بِهُبُوبِ الرِّيحِ، فَلَمْ أَبَالِ، وَلَمْ أَتُنْ^{٢١} عَنْ عَزِيمَتِي. وَقَدْ ظَفَرْتُ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ بِثَلَاثِ مَوَاسٍ،^{٢٢} وَكَانَتْ فِي غُرْفَةِ الرُّبَّانِ، كَمَا ظَفَرْتُ بِمَقْصَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ وَعِدَّةِ مَلَاعِقَ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَدَوَاتِ النَّافِعَةِ. ثُمَّ لَاحَتْ مِنِّي التَّفَاتَةُ، فَرَأَيْتُ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ جَنْيَهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَابْتَسَمْتُ — حِينَئِذٍ — سَاحِرًا؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي بِهِذِهِ النُّقُودِ حَاجَةٌ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ. وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِالْقَائِهَا فِي

^{١٧} جعلت لها سورًا.

^{١٨} الأخذ.

^{١٩} متوالية.

^{٢٠} بسكويًا.

^{٢١} لم أرجع.

^{٢٢} جمع موسى، وهي الآلة التي يُخلق بها.

الْبَحْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ عَنْ ذَلِكَ، وَوَضَعْتُهَا فِي صُرَّةٍ مِنَ الْخَيْشِ. وَرَأَيْتُ السَّمَاءَ تَتَلَبَّدُ بِالْغُيُومِ؛ فَاسْرَعْتُ بِالْعُودَةِ إِلَى كُوْجِي. وَقَدْ لَقِيتُ عَنَاءً شَدِيدًا فِي مَغَالِبَةِ الْأَمْوَاجِ، وَلَكِنِّي وَصَلْتُ إِلَى الشَّاطِئِ سَالِمًا بِحَمْدِ اللَّهِ.

(٨) عَرَقُ السَّفِينَةِ

وَمَا عُدْتُ إِلَى خِيَمَتِي حَتَّى عَنَفَتِ الرِّيَّاحُ، وَاشْتَدَّ اصْطِحَابُ الْأَمْوَاجِ، وَظَلَّ الْبَحْرُ مُضْطَرِبًا هَائِجًا طُولَ اللَّيْلِ.

وَلَمَّا أَقْبَلَ الصَّبَاحُ دُرْتُ بِالْحَاضِي فِي عَرْضِ الْبَحْرِ؛ فَلَمْ أَجِدْ لِلْسَّفِينَةِ أَثَرًا، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْعَاصِفَةَ أَغْرَقَتْهَا؛ فَلَمْ أَحْزَنْ عَلَيْهَا، لِأَنِّي لَمْ أَدْخُرْ وَسْعًا فِي نَقْلِ كُلِّ مَا أحتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا فِي الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ.

(٩) الْبَيْتُ الْجَدِيدُ

لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ — بَعْدَ ذَلِكَ — إِلَّا أَنْ أَفَكِّرَ فِي وَسِيلَةٍ تَصُدُّ عَنِّي غَائِلَةَ الْمُعْتَدِينَ، مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ، أَوْ مِنَ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ. وَظَلَلْتُ أَفَكِّرُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ الَّذِي أَشِيدُهُ، وَلَمْ أَذَرِ: هَلْ أَحْفَرُ كَهْفًا أَمْ أَقِيمُ خِيَمَةً؟ ثُمَّ قَرَّرْتُ عَلَى أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَهُمَا. وَرَأَيْتُ الْمَكَانَ الَّذِي حَلَلْتُهُ لَا يَصْلُحُ لِإِقَامَتِي إِقَامَةً دَائِمَةً؛ لِأَنَّهُ فِي أَرْضٍ مُنْخَفِضَةٍ سَبِيحَةً^{٢٣} وَبِقَائِي فِيهِ مُضِرٌّ بِصِحَّتِي، وَهُوَ — إِلَى ذَلِكَ — لَيْسَ قَرِيبًا مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ. فَبَحَثْتُ عَنْ مَكَانٍ آخَرَ أَكْثَرَ ملاءَمَةً لِي. وَهَدَانِي الْبَحْثُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَرَدْتُ؛ فَقَدْ وَفَّقْتُ إِلَى سَهْلٍ صَغِيرٍ فِي سَفْحِ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ صَخْرِيٍّ، وَبِجَانِبِهِ مَاءٌ عَذْبٌ، وَهُوَ مُشْرِفٌ عَلَى الْبَحْرِ. وَكَانَ فِي أَعْلَى ذَلِكَ التَّلِّ صَخْرَةٌ نَاتِيَةٌ^{٢٤} تَقِينِي وَهَجَ الشَّمْسِ، وَتَحْمِيْنِي مِنَ اعْتِدَاءِ الْمُغِيرِينَ، مِنْ إِنْسٍ وَحَيَوَانٍ. وَكَانَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ مَحْفُورَةً تُشَبِّهُ الْكَهْفَ؛ فَبَنَيْتُ خِيَمَتِي أَمَامَهَا، وَتَبَّتْ أَوْتَادُهَا؛ وَشَعَرْتُ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ بِمَأْمَنِ مِنْ كُلِّ اعْتِدَاءٍ. وَلَمْ أَجْعَلْ لِبَيْتِي بَابًا أَدْخُلُهُ؛ بَلْ سَلَّمًا أَتَسَلَّفُهُ. فَإِذَا دَخَلْتُ

^{٢٣} ذات نز وملح.

^{٢٤} مرتفعة.

الْبَيْتَ رَفَعْتُ السُّلَمَ إِلَى دَاخِلِهِ، وَنِمْتُ — طُولَ لَيْلِي — نَاعِمَ الْبَالِ، مُطْمَئِنًّا، قَرِيرَ الْعَيْنِ. ثُمَّ نَقَلْتُ فِي هَذَا الْحِصْنِ كُلِّ مَا لَدَيَّ مِنْ مَتَاعٍ وَزَادٍ وَذَخَائِرٍ. وَرَفَعْتُ — فِي أَعْلَى الْمَسْكَنِ — سَقْفًا مُؤَلَّفًا مِنْ شِرَاعَيْنِ: أَحَدُهُمَا فَوْقَ الْآخَرِ، وَطَلَيْتُهُمَا بِالْقَارِ،^{٢٥} ثُمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي إِلَى حَفْرِ مَكَانٍ فِي تِلْكَ الصَّخْرَةِ لِيَكُونَ مَخْزَنًا صَغِيرًا فِي مَنْزِلِي. وَظَلَلْتُ جَادًّا فِي عَمَلِي. وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ بَرَقَ الْبَرْقُ وَرَعَدَ الرَّعْدُ؛ فَاسْتَدَّ جَزَعِي، وَخَشِيتُ أَنْ يَشْتَعَلَ الْبَارُودُ، فَيَذُمَّرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَنَمَّ^{٢٦} وَجَّهْتُ هِمَّتِي كُلَّهَا إِلَى تَأْمِينِي^{٢٧} مِنْ هَذَا الْخَطَرِ؛ فَصَنَعْتُ أَكْيَاسًا كَثِيرَةً، وَوَضَعْتُ فِيهَا الْبَارُودَ، وَفَرَّقْتُهَا فِي أَنْحَاءٍ مُتَبَاعِدَةٍ؛ حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي أَحَدِهَا لَمْ تَتَّصِلْ بِغَيْرِهِ.

وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَمِنْتُ أَنْ يَشْتَعَلَ كُلُّ مَا عِنْدِي مِنَ الْبَارُودِ مَرَّةً وَاحِدَةً. وَقَدْ أَنْجَزْتُ هَذَا الْعَمَلَ فِي خِلَالِ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مُتَوَالِيَةً، وَوَضَعْتُ الْبَارُودَ فِي مِائَةِ غَرَارَةٍ^{٢٨} أَخْفَيْتُهَا فِي ثُقُوبِ الصَّخْرِ، لَأَمِّنَ عَلَيْهَا الرُّطُوبَةُ. وَكَانَتْ ذَخِيرَتِي مِنَ الْبَارُودِ لَا يَقِلُّ وَزْنُهَا عَنْ مِائَةِ وَأَرْبَعِينَ رَطْلًا. وَقَدْ اشْتَدَّ حَرْصِي عَلَيْهَا، وَلَمْ يَرْتَحْ بَالِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَثِقْتُ مِنْ سَلَامَتِهَا، وَذَهَبَ خَوْفِي عَلَيْهَا مِنَ التَّلَفِ.

^{٢٥} الزفت.

^{٢٦} هناك.

^{٢٧} حفظي.

^{٢٨} زكبية.



الزلال

(١) جداء الجزيرة

لَمْ أَكْفَ عَنِ الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا فِي فتراتٍ قَلِيلَةٍ، كُنْتُ أَخْرُجُ — فِي أَثْنَائِهَا — مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، لِأُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي مِنْ عَنَاءِ الْعَمَلِ، أَوْ لِأَصْطَادَ بَعْضَ الْحَيَوَانِ لِغِذَائِي، أَوْ لِأَزْتَادَ أَنْحَاءَ الْجَزِيرَةِ الْمَجْهُولَةِ.

وَقَدْ اسْتَرْعَى بَصْرِي — فِي أَوَّلِ يَوْمٍ — مَا بِالْجَزِيرَةِ مِنْ جَدِيَانٍ، وَابْتَهَجْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا. وَلَكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَطُلْ؛ لِأَنَّنِي رَأَيْتُهَا مُتَوَحِّشَةً مَآكِرَةً سَرِيعَةً الْعَدُوِّ، لَا أَكَادُ أَقْتَرِبُ مِنْهَا حَتَّى تَفِرَّ هَارِبَةً. وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أَصْطَادَ جَدِيًّا مِنْ هَذِهِ الْجِدَاءِ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ؛ لِسُرْعَتِهَا وَخَفْيَتِهَا. وَلَكِنَّ الْيَأْسَ لَمْ يَغْلِبْنِي عَلَى أَمْرِي، وَظَلَلْتُ أَرَأِبُ حَرَكَاتِهَا فِي رَوْحَتِهَا وَجَبَائِثِهَا؛ فَرَأَيْتُهَا تَفْزَعُ مِنِّي هَارِبَةً، إِذَا أَقْبَلْتُ عَلَيْهَا مِنَ الْوَادِي وَكَانَتْ فَوْقَ الصُّخُورِ. فَإِذَا كُنْتُ أَنَا فَوْقَ الصُّخُورِ وَكَانَتْ هِيَ فِي الْوَادِي تَزْعَى، لَمْ تَتَحَرَّكْ، وَلَمْ تَشْعُرْ بِمَقْدَمِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ بَصَرَهَا مُنْصَرِفٌ إِلَى أَسْفَلٍ، فَهِيَ لَا تَرْفَعُهُ إِلَى فَوْقٍ؛ وَثُمَّ لَا تَرَى مَا فَوْقَهَا. وَرَأَيْتُ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ تُمْكِّنُنِي مِنْ اقْتِنَاصِهَا^١ بِسُهُولَةٍ هِيَ أَنْ أَشْرِفَ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقِ تِلْكَ الصُّخُورِ، وَأُصَوِّبَ رِصَاصِي إِلَيْهَا. وَقَدْ نَجَحَتْ هَذِهِ الْحِيلَةُ، وَأَصَابَتْ أَوَّلَ طَلْقَةٍ مِنْ بُنْدُقِيَّتِي مَاعِزًا فَقَتَلْتُهَا. وَكَانَ مَعَهَا جَدِيٌّ صَغِيرٌ؛ فَحَمَلْتُهَا عَلَى كَتْفِي وَتَبِعْنِي صَغِيرُهَا حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى

^١ صيدها.



مَسْكَنِي. وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي مُلَاطَفَةِ الْجَدْيِ لَعَلَّهُ يَسْتَأْنِسُ بِي فَلَمْ أَفْلَحْ. وَقَدْ أَبَى أَنْ يَأْكُلَ
مَا قَدَّمْتُهُ لَهُ مِنَ الطَّعَامِ؛ فَاضْطُرَرْتُ إِلَى ذَبْحِهِ وَأَكْلِهِ.

(٢) مُدَكَّرَاتُ يَوْمِيَّةٍ

وهكذا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْظِمَ حَيَاتِي — مُنْذُ وَطِئْتُ^٢ قَدَمَايَ تِلْكَ الْجَزِيرَةَ النَّائِيَةَ الْقَفْرَ^٣ — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ الْمُتَمَمِّ لِلثَّلَاثِينَ مِنْ «سِبْتَمْبَرٍ». وَكَانَ الْوَقْتُ خَرِيفًا، وَحَرَارَةُ الشَّمْسِ مُحْتَمَلَةً.

وَكَانَتِ الْجَزِيرَةُ الَّتِي حَلَلْتُهَا وَاقِعَةً عَلَى الدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ شَمَالِ خَطِّ الاسْتِواءِ تَقْرِيْبًا.

وَمَا مَرَّ عَلَيَّ عَشْرَةُ أَيَّامٍ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَنْسَى تَوَارِيخَ الْأَيَّامِ. وَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي كُرَّاسَةٌ وَلَا وَرَقٌ وَلَا مِدَادٌ، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَدَوُّ لِلْأَيَّامِ تَارِيخَهَا. وَبَعْدَ افْتِكَارٍ طَوِيلٍ أَقَمْتُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ جِذْعًا مُرَبَّعًا مِنَ الْحَشَبِ، وَحَفَرْتُ فِيهِ مَا يَأْتِي: «حَلَلْتُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ فِي ٣٠ مِنْ سِبْتَمْبَرِ سَنَةِ ١٦٥٨ م.» ثُمَّ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَحْفَرَ خَطًّا صَغِيرًا فِي كُلِّ يَوْمٍ. فَإِذَا انْتَهَى الْأُسْبُوعُ حَفَرْتُ خَطًّا مُزْدَوِجًا. فَإِذَا انْتَهَى الشَّهْرُ حَفَرْتُ مُرَبَّعًا صَغِيرًا. وَقَدْ تَمَكَّنْتُ بِهِذِهِ الْوَسِيلَةِ مِنْ تَعْرِفِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ وَالشَّهْرِ وَالسَّنَةِ، وَأَمِنْتُ الْخَطَّ وَالنَّسْيَانَ.

(٣) الْأَصْدِقَاءُ الْأَوْفِيَاءُ

فَاتَنَّبَيْ أَنْ أَذْكَرَ لِلْقَارِئِ أَنَّ السَّفِينَةَ — الَّتِي غَرِقَتْ — كَانَ بِهَا قِطَّانٌ وَكَلْبٌ. وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهَا الْقَدَرُ أَنْ تَكُونَ قِصَّتُهَا مُمْتَزِجَةً بِقِصَّتِي؛ فَقَدْ أَحْضَرْتُ الْقِطَّانَ مَعِي، وَفَقَرَ الْكَلْبُ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الشَّاطِئِ سَبَاحَةً، وَلَحِقَ بِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي. وَقَدْ ظَلَّ الْكَلْبُ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ يَخْدُمُنِي عِدَّةَ سَنَوَاتٍ.

^٢ داسْت.

^٣ الْخَالِيَةِ.



وكان دَقِيقَ الْمُلَاحَظَةِ، حَادَّ الذِّكَاءِ، أَشْبَهَ بِالْخَادِمِ الذَّكِيِّ الْحَازِقِ^٤. وَكَانَ — فِي الْحَقِيقَةِ — خَيْرَ صَدِيقٍ وَخَادِمٍ لِي. وَقَدْ أُعْجِبْتُ بِذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ وَدَقَّةِ مُلَاحَظَتِهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ:

^٤ الماهر.

فِي كُلِّ شَيْءٍ يُشَبِّهُ الْإِنْسَانَ إِلَّا فِي الْكَلَامِ

(٤) أَثَاثُ الْبَيْتِ

ذَكَرْتُ لِلْقَارِئِ أَنَّنِي نَقَلْتُ ذَخَائِرِي وَزَادِي إِلَى بَيْتِي الْجَدِيدِ. وَقَدْ وَضَعْتُهَا — أَوَّلَ الْأَمْرِ — عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ؛ فَشَغَلْتُ مِنْ بَيْتِي فَرَاغًا كَبِيرًا، حَتَّى صَعِبَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ فِيهِ مُتَسَعًا لِلْحَرَكَةِ، فَعَمَدْتُ إِلَى حَفْرِ الْمَغَارَةِ لِنُوسِيعِهَا. وَقَدْ وَالَيْتُ الْعَمَلَ — فِي ذَلِكَ — أَيَّامًا حَتَّى وَفَّقْتُ إِلَى غَايَتِي. ثُمَّ عَنَّ^٥ لِي أَنْ أَصْنَعَ أَهَمَّ مَا أحتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَثَاثِ الدَّارِ؛ فَبَدَأْتُ بِصُنْعِ كُرْسِيِّ وَمَائِدَةٍ. وَقَدْ أَكْسَبَنِي الْعَمَلُ الْمُتَوَاصِلُ مَرَانَةً نَادِرَةً سَهَّلَتْ عَلَيَّ صُنْعَ كُلِّ مَا يُعْوزُنِي مِنَ الصَّرُورِيَّاتِ.

وَقَدْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْنَعَ كَثِيرًا مِنَ الْأَثَاثِ، دُونَ أَنْ أَسْتَعِينَ عَلَى ذَلِكَ بِغَيْرِ قَدُومٍ وَمِسْحَجٍ^٦. فَإِذَا عَنَّ لِي أَنْ أَصْنَعَ لَوْحًا، قَطَعْتُ الشَّجَرَةَ بِالْقَدُومِ، وَطَرَحْتُ جَذْعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ هَدَبْتُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ حَتَّى يَصِلَ سَمْكُهُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي أُريدُ. فَإِذَا نَمَّ لِي ذَلِكَ صَقَلْتُهُ^٧ بِمِسْحَجِي.

وَكَانَ الْقَدُومُ وَالْمِسْحَاجُ خَيْرَ مَعْوَانٍ^٨ لِي عَلَى إِنْجَازِ كَثِيرٍ مِنْ أَثَاثِ الْبَيْتِ. وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أَصْنَعَ أَكْثَرَ مِنْ لَوْحٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ شَجَرَةٍ كَامِلَةٍ. عَلَى أَنَّنِي لَجَأْتُ إِلَى الصَّبْرِ، وَلَمْ يَكُنْ لِي مَنُذُوحَةٌ^٩ عَنْهُ. وَقَدْ بَدَأْتُ بِعَمَلِ كُرْسِيِّ وَمَائِدَةٍ، ثُمَّ صَنَعْتُ الْوَاحَا كَثِيرَةً، ثُمَّ تَبْتُ فِي الصَّخْرِ مَسَامِيرَ لَوْلِييَّةٍ^{١٠}، لِأُعَلِّقَ عَلَيْهَا بِنَادِقِي وَثِيَابِي. وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي إِنْجَازِ كُلِّ مَا أحتاجُ إِلَيْهِ مِنَ الصَّرُورِيَّاتِ.

^٥ خطر.

^٦ آلة يصفل بها الخشب.

^٧ أنعمته.

^٨ مساعد.

^٩ بُدْ وسعة.

^{١٠} مُلَوَّاة.

(٥) شَحْمُ الْجِدَاءِ

وَكَانَ يُعَوِّزُنِي — وَمَا أَكْثَرَ مَا كَانَ يُعَوِّزُنِي حِينَئِذٍ — الشَّمْعُ. وَكَانَ فَقْدَانُهُ يَضْطَرُّنِي إِلَى مُلَازِمَةِ فِرَاشِي كُلَّمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ.
وَقَدْ فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ طَوِيلًا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَى حَلِّ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ؛ فَحَرَصْتُ عَلَى شَحْمِ الْجِدَاءِ الَّتِي كُنْتُ أَذْبَحُهَا، ثُمَّ جَفَفْتُهَا فِي أَشْعَةِ الشَّمْسِ. وَوَضَعْتُ فِي وَسْطِ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الشَّحْمِ فِتِيلًا أَخْرَجْتُهَا مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي عِنْدِي؛ حَتَّى إِذَا تَمَّ صُنْعُ الشَّمْعِ ظَفِرْتُ بِالضَّوءِ لَيْلًا، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَقْضِي لَيَالِي فِي ظِلَامٍ حَالِكٍ.

(٦) سَنَابِلُ الشَّعِيرِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كُنْتُ دَائِبًا^{١١} عَلَى الْعَمَلِ؛ فَاسْتَرَعَى انْتِبَاهِي كَيْسُ الْحُبُوبِ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ مَعِيَ مِنَ السَّفِينَةِ الْمُحْطَمَةِ، فَرَأَيْتُ الْفَأْرَةَ قَدْ التَّهَمَّتْهُ حَتَّى لَمْ تَكَدْ تَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقُشُورُ. فَأَفْرَعْتُ الْكَيْسَ مِنْهَا عِنْدَ سَفْحِ الصَّخْرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ كَهْفِي، لِأَنْتَفِعَ بِالْكَيْسِ فِي قَضَاءِ مَآرِبِ^{١٢} أُخَرَ. وَبَعْدَ قَلِيلٍ هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ، وَرَوَّتِ الْأَرْضُ، ثُمَّ نَسِيتُ كُلَّ مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَمَا مَرَّ عَلَيَّ شَهْرٌ وَاحِدٌ تَقْرِيبًا حَتَّى أَدْهَشَنِي مَا رَأَيْتُهُ — عِنْدَ سَفْحِ الصَّخْرَةِ — مِنَ السُّوقِ النَّامِيَةِ فِي الْأَرْضِ.

وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُهَا — أَوَّلَ الْأَمْرِ — نَبَاتَاتٍ مَجْهُولَةً. ثُمَّ ظَهَرَ لِي خَطَأُ هَذَا الظَّنِّ — بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ — حِينَ رَأَيْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سُنْبُلَةً مِنَ الشَّعِيرِ الْأَخْضَرِ.

وَقَدْ اسْتَنْدَتِ دَهْشَتِي — حِينَئِذٍ — وَلَمْ أَقْصِرْ فِي تَعَهُدِهَا بِالْعِنَايَةِ، وَحَصَدِهَا فِي مَوْسَمِ الْحَصَادِ، وَهُوَ آخِرُ شَهْرِ «يُونِيَّة».

وَقَدْ جَنَّبْتُهَا بِعِنَايَةٍ نَادِرَةٍ؛ فَلَمْ أَهْمِلْ مِنْهَا حَبَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ بَذَرْتُهَا — بَعْدَ ذَلِكَ — فِي مَوْسَمِ الْبَذْرِ. وَلَاخَ لِي أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْخُبْزِ بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ.

^{١١} مجتهدًا.

^{١٢} إنجاز حاجات.



وَمَا مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ حَتَّى أَصْبَحَ عِنْدِي - مِنَ الشَّعِيرِ - مَا يَكْفِي لِغِدَائِي
وَزَرَعْتُ حَقْلِي الْجَدِيدَ.

(٧) زَلْزَالُ الْجَزِيرَةِ

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ الْيَوْمَ السَّابِعَ مِنْ «أَبْرِيلَ» عَامَ سِتِّينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَالْف: فَقَدْ كَانَ يَوْمًا هَائِلَ النَّبَأِ، مُرَوِّعَ الْحَبْرِ، وَقَدْ أَيْقَنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ آخِرَتِي دَنْتُ، وَأَنَّ مَصْرِعِي وَشِيكَ.^{١٣} وَرَأَيْتُ كُلَّ مَا أَتَمَمْتُهُ — مِنْ عَمَلٍ — يَكَادُ يَنْهَارُ^{١٤} أَمَامِي فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ. كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْهُمْ^{١٥} فِي أَعْمَالِي، دَاخِلَ خَيْمَتِي. وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ وَجَدْتُ الْأَرْضَ تَهْبِطُ وَتَصْعَدُ. وَشَعَرْتُ بِاضْطِرَابِ الصُّخُورِ الَّتِي تَكْتَنِفُنِي^{١٦} وَسَمِعْتُ فَرْقَعَةً وَجَلْجَلَةً شَدِيدَتَيْنِ، وَلَمْ أَعْرِفْ مَصْدَرَ هَذِهِ الْكَوَارِثِ. وَتَمَلَّكَنِي الذُّعْرُ، وَخَشِيتُ أَنْ أُدْفَنَ حَيًّا؛ فَصَعِدْتُ السُّلَمَ، وَخَرَجْتُ مِنْ خَيْمَتِي مُسْرِعًا، وَأَنَا لَا أَكَادُ أَصَدِّقُ بِالنَّجَاةِ؛ فَرَأَيْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ تَهْتَزُّ اهْتِزَازًا عَنِيفًا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الزَّلْزَالُ. وَقَدْ اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَعَابَةً^{١٧} وَكَانَ بَيْنَ كُلِّ مَرَّةٍ مِنْهَا ثَمَانِي دَقَائِقَ.

وَكَانَتْ تِلْكَ الْهَزَّاتُ قَوِيَّةً عَنِيفَةً إِلَى حَدٍّ أَنْ هَوَتْ إِحْدَى الصُّخُورِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي، وَلَمْ أَكُنْ أَبْعُدُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ مِثْرٍ وَنِصْفِ مِثْرٍ، وَسَمِعْتُ لِسُقُوطِهَا صَوْتًا هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالرَّعْدِ. وَثَمَّةَ^{١٨} عَقْدَ الْخَوْفِ لِلسَّانِي، وَكَادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي، مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ. وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ الْأَرْضَ هَدَأَتْ، وَسَكَنَ اضْطِرَابُهَا بَعْدَ تِلْكَ الْهَزَّاتِ الثَّلَاثِ؛ فَاطْمَأَنَنْتُ نَفْسِي قَلِيلًا، وَلَكِنِّي لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى دُخُولِ خَيْمَتِي؛ فَجَلَسْتُ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَصْنَعُ.

^{١٣} هلاكي مسرع إلي.

^{١٤} يسقط.

^{١٥} جادًا.

^{١٦} تحيط بي.

^{١٧} متوالية.

^{١٨} هناك.

(٨) بَعْدَ الزَّلْزَالِ

وَكَفَّهَرَّتِ السَّمَاءُ^{١٩} وَتَلَبَّدَتْ فَجْأَةً بِالْغُيُومِ الْقَاتِمَةِ. وَهَبَّتِ الرِّيحُ عَاصِفَةً هَوْجَاءَ، وَاصْطَحَبَ الْبَحْرُ، وَاصْطَفَقَتْ أَمْوَاجُهُ اصْطِفَاقًا شَدِيدًا، وَكَانَتْ تَصِلُ فِي ارْتِفَاعِهَا إِلَى مِثْلِ ارْتِفَاعِ الْجِبَالِ. وَظَلَّتِ الْعَاصِفَةُ ثَائِرَةً مُفْرِغَةً ثَلَاثَ سَاعَاتٍ، ثُمَّ أَعْقَبَهَا السُّكُونُ، وَهَطَلَتِ الْأَمْطَارُ الْغَزِيرَةُ؛ فَحَسَبْنَاهَا سُبُورًا تَهْمِي مِنَ السُّحُبِ الْمُتَكَاثِفَةِ. وَظَلَّتِ السَّمَاءُ تُمَطِّرُنَا طُولَ اللَّيْلِ وَطَرَفًا مِنْ نَهَارِ الْيَوْمِ التَّالِي. وَكَانَ شُغْلِي الشَّاعِلُ — حِينَئِذٍ — التَّفَكِيرُ فِي تَغْيِيرِ هَذَا الْمَنْزِلِ، بَعْدَ حُدُوثِ الزَّلْزَالِ. فَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِي أَنْ أَطْمَئِنُّ إِلَى الْبَقَاءِ، بَعْدَ أَنْ كِدْتُ أُدْفِنُ فِيهِ حَيًّا. وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «مَا دَامَتِ الْجَزِيرَةُ عَرْضَةً لَأَخْطَارِ الزَّلْزَالِ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ^{٢٠} أَنْ أَتَّخِذَ هَذِهِ الْمَغَارَةَ مَسْكِنًا لِي، وَمَا أَجْدُرَنِي أَنْ أَتَخَيَّرَ مَكَانًا صَالِحًا فِي الْعَرَاءِ،^{٢١} لِأَبْنِيَ فِيهِ مَسْكِنِي، بَعْدَ أَنْ أُسَوِّرَهُ بِسِيَاحٍ أَمِينٍ.»^{٢٢}

وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمُغَادَرَةِ هَذَا الْكَهْفِ الَّذِي لَمْ أَلْ جُهْدًا^{٢٣} فِي حَفْرِهِ وَإِصْلَاحِهِ وَتَنْظِيمِ أَمْنِعَتِي فِيهِ، حَتَّى أَصْبَحَ بَيْنًا وَحِصْنًا مَنِيعًا^{٢٤} يَقِينِي غَارَاتِ الْأَعْدَاءِ.

(٩) أَثَرُ الزَّلْزَالِ

وَفِي صَبَاحِ أَوَّلِ «مَآيُو» وَقَفْتُ أَتَأَمَّلُ الْبَحْرَ، وَأُجِيلُ لِحَاطِي فِي أَرْجَائِهِ.^{٢٥} فَرَأَيْتُ بَقَايَا مُتَنَازِرَةً مِنْ حُطَامِ السَّفِينَةِ وَمِنْ أَلْوَاحِهَا، قَذَفَهَا الْمُدُّ إِلَى الشَّاطِئِ. فَصَبَرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى

^{١٩} اسودت.^{٢٠} الحكمة.^{٢١} الفضاء.^{٢٢} سور متين.^{٢٣} لم أبق قوة إلا بذلتها.^{٢٤} قويًا.^{٢٥} أدير بصري في أنحائه.

يَنْحَسِرُ^{٢٦} عَنْهَا الْمَاءُ، وَقَتَ الْجَزْرِ. ^{٢٧} وَقَدْ دَهَشْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مِمَّا رَأَيْتُ. وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ أَثَرِ الزَّلْزَالِ الَّذِي حَطَمَ السَّفِينَةَ تَحْطِيمًا، ثُمَّ قَذَفَتِ الْأَمْوَاجُ بِاللَّوْاحِهَا إِلَى الشَّاطِئِ. وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا بِانْتِهَازِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ قَبْلَ أَنْ أَشْغَلَ نَفْسِي بِبِنَاءِ الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ. وَعَمِلْتُ عَلَى تَجْزِئَةِ مَا بَقِيَ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى قِطْعٍ، وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حَاجَتِي إِلَى هَذِهِ الْبَقَايَا الْمَحْطَمَةِ. وَقَدْ وَاصَلْتُ الْعَمَلَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْعَزْمِ حَتَّى مُنْتَصَفِ شَهْرِ «يُونِيَّة»، وَظَفَرْتُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْوِاحِ، كَمَا ظَفَرْتُ بِأَكْثَرِ مِنْ مَائَتِي رَطلٍ مِنَ الْحَدِيدِ. وَهَكَذَا أَصْبَحَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَبْنِيَ لِي زَوْرَقًا كَامِلَ الْمُعَدَّاتِ. وَصَنَعْتُ — بَعْدَ ذَلِكَ — شَبَكَةً أَصْطَادُ بِهَا السَّمَكِ. وَكُنْتُ أَجْفُفُ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَتِي مِنْهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا، ثُمَّ أَكَلُهُ فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى.

(١٠) بَيْنَ بَرَاثِنِ الْحُمَى

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ «يُونِيَّة» رَأَيْتُ سُلْحَفًا كَبِيرَةً تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ سُلْحَفَةٍ أَرَاهَا فِي الْجَزِيرَةِ. عَلَى أَنْبِي رَأَيْتُ — فِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ — أُسْرَابًا^{٢٨} كَثِيرَةً مِنَ السَّلَاحِفِ فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنْهَا. وَذَبَحْتُ تِلْكَ السَّلْحَفَةَ؛ فَرَأَيْتُ فِيهَا سِتِينَ بَيْضَةً. وَكَانَ لَحْمُهَا — حِينَئِذٍ شَهِيًّا لَذِيذًا؛ حَتَّى حِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَشْهَى طَعَامٍ تَذَوَّقْتُهُ فِي حَيَاتِي. وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ «يُونِيَّة» هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ غَزِيرَةً، وَبَرَدَ الْجَوُّ فَجَاءَةً، فَأَصَابَتُنِي الْحُمَى عَشْرَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ. وَكَانَتْ حَرَارَتِي تَخْتَلِفُ بَيْنَ ارْتِفَاعٍ وَانْخِفَاضٍ، وَقَدْ اشْتَدَّ بِيَ الظَّمَا وَأَعْجَزَنِي الضَّعْفُ عَنِ السَّيْرِ إِلَى مَكَانِ الْمَاءِ لِأَرْوِي ظَمْيِي.

^{٢٦} يرتد.

^{٢٧} ارتداد الماء.

^{٢٨} جماعات.

وما تَمَاتَلْتُ،^{٢٩} حَتَّى انْصَرَفَ هَمِّي إِلَى مَلْءِ زُجَاجَةٍ كَبِيرَةٍ مَاءً، وَوَضَعْتُهَا عَلَى الْمَائِدَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سِرِيرِي.

وَلَقَدْ نَهَكْتَ الْحُمَى قَوَايَ؛^{٣٠} فَبَقِيتُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ أُخْرَى وَأَنَا عَاجِزٌ عَنْ أَدَاءِ أَيِّ عَمَلٍ. فَقَضَيْتُ دَوْرَ النَّقْهِ^{٣١} فِي رَاحَةٍ تَامَةٍ، تَتَخَلَّلُهَا نُزْهَاتٌ قَصِيرَةٌ، حَتَّى اسْتَرَدَدْتُ صِحَّتِي كَامِلَةً فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ «يُلْيَةِ».

(١١) ارْتِيَادُ الْجَزِيرَةِ

وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا أَنْ ارْتَادَ الْجَزِيرَةَ، وَأَتَعَرَّفَ كُلَّ مَا فِيهَا. فَذَهَبْتُ إِلَى الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ — وَهُوَ أَوَّلُ مَكَانٍ حَلَلْتُهُ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ — وَسِرْتُ عَلَى شَاطِئِ الْغَدِيرِ الَّذِي يَصُبُّ فِيهِ، وَقَطَعْتُ نَحْوَ مِيلَيْنِ فِي أَرْضٍ مُرْتَفَعَةٍ. وَقَدْ أُعْجِبْتُ بِالْمُرُوجِ الْخَضِرِ الْجَمِيلَةِ الْمُنْبَسِطَةِ الَّتِي يَخْتَرِقُهَا الْغَدِيرُ. وَرَأَيْتُ فِي الْمُرُوجِ الْمُرْتَفَعَةِ كَثِيرًا مِنَ التَّبَعِ الْأَخْضَرِ نَامِيًا عَلَى سَوَاقٍ مُرْتَفَعَةٍ، كَمَا رَأَيْتُ عِيدَانَ قَصَبِ السُّكَّرِ عَلَى غَيْرِ مَا يُرَامُ، فَقَدْ أَهْمَلْتُ وَلَمْ يَنْعَهْذَهَا أَحَدٌ بِعِنَايَتِهِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي — أَيَّ فِي السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ ذَلِكَ الشَّهْرِ — سِرْتُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي قَطَعْتُهَا بِالْأَمْسِ، وَتَوَعَّلْتُ^{٣٢} فِي الْمُرُوجِ، فَرَأَيْتُ وَرَاءَهَا كَثِيرًا مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ وَغَيْرِهَا، وَرَأَيْتُ — مِنَ الشَّمَامِ وَالْعَنْبِ النَّاضِجِ الشَّهِي — مَا أَدْهَشَنِي وَأَفْعَمَ قَلْبِي سُرُورًا، فَأَكَلْتُ مِنَ الْفَاكِهَةِ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ حَتَّى لَا تُسَلِّمَنِي التُّخْمَةُ إِلَى الْمَرَضِ. ثُمَّ عَنَّ لِي أَنْ أَجْفَفَ الْعَنْبَ حَتَّى يُصْبِحَ زَبِيًّا. وَمَضَى النَّهَارُ كُلُّهُ وَأَنَا جَادٌّ فِي هَذَا الْعَمَلِ. وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَعُودَ إِلَى مَسْكَنِي قَبْلَ أَنْ يُقْبَلَ اللَّيْلُ لِبَعْدِ الشُّقَّةِ^{٣٣} فَتَخَيَّرْتُ لِنَوْمِي شَجَرَةً كَثِيفَةً الْأَغْصَانِ، وَبِمَتُّ

^{٢٩} دنوت من الشفاء.

^{٣٠} أضعفتها.

^{٣١} مدة استكمال الصحة.

^{٣٢} قطعت مسافة بعيدة.

^{٣٣} بعد المسافة.

بَيْنَ أَغْصَانِهَا، كَمَا نِمْتُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ حَلَلْتُ فِيهَا هَذِهِ الْجَزِيرَةَ. وَمَا زِلْتُ نَائِمًا قَرِيرَ الْعَيْنِ^{٣٤} هَادِيَّ الْبَالِ حَتَّى أَقْبَلَ الصَّبَاحُ، فَاسْتَيْقَظْتُ، ثُمَّ وَاصَلْتُ السَّيْرَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ، حَتَّى بَلَغْتُ غَابَةَ مُزْدَهَرَةٍ، تَلُوحُ لِعَيْنٍ مِنْ يَرَاهَا مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهَا حَدِيقَةٌ. وَقَدْ اسْتَرْعَى بَصْرِي مَا رَأَيْتُهُ مِنْ شَجَرِ الْبُرْتُقَالِ وَاللَّيْمُونِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْفَاكِهَةِ النَّاضِجَةِ الشَّهِيَّةِ.

وَرَأَيْتُ مِنْ أَصَالَةِ الرَّأْيِ^{٣٥} أَنْ أُعِدَّ مِنْ هَذِهِ الْخَيْرَاتِ الْعَمِيمَةِ زَادًا اخْتَزَنَهُ لِفَضْلِ الشِّتَاءِ الْقَرِيبِ، فَجَنَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعِنَبِ، وَعَلَّقْتُهُ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرِ، لِيَجِفَّ فِي الشَّمْسِ. وَأَخَذْتُ مِنَ الْبُرْتُقَالِ بِمِقْدَارٍ مَا اسْتَطِيعُ حَمَلُهُ. وَسَرْتُ فِي طَرِيقِي عَائِدًا إِلَى مَسْكَنِي، وَأَنَا شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِجَمَالِ هَذَا الْوَادِي الْخَصِيبِ، وَاعْتِدَالِ جَوْهٍ، وَحُسْنِ مَوْقِعِهِ الْأَمِينِ. وَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَكَانَ — الَّذِي تَحَايَرْتُهُ لِسُكْنَايَ — هُوَ أَرْدَأُ بُقْعَةٍ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ. وَلَكِنِّي لَمْ أَشَأْ أَنْ أَبْرَحَ الْمَكَانَ، لِقُرْبِهِ مِنَ الْبَحْرِ. وَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَمُرَّ بِي سَفِينَةٌ، أَوْ يَفِدَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَيُنْقِذَنِي مِنْ تِلْكَ الْعُزْلَةِ.

عَلَى أَنَّي — لِشِدَّةِ إِعْجَابِي بِهِذِهِ الْبُقْعَةِ الْجَمِيلَةِ — لَمْ أَشَأْ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْهَا، فَأَنْشَأْتُ فِيهَا عُشًا أَوِي إِلَيْهِ وَسَطَ فَنَاءٍ^{٣٦} مُحَاطٍ بِسِيَاجٍ^{٣٧} طَبِيعِي مُزْدَوِجٍ مِنَ الْأَشْجَارِ. وَكُنْتُ أَمْضِي فِي هَذَا الْحِصْنِ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا مُتَوَالِيَةً، وَقَدْ صَنَعْتُ سُلَّمًا شَبِيهًا بِالسُّلَمِ الَّذِي صَنَعْتُهُ فِي الْمَنْزِلِ الْأَوَّلِ. وَهَكَذَا أَصْبَحَ لِي مَنْزِلَانِ مُتَبَاعِدَانِ، أَوِي إِلَيْهِمَا فِي أَيِّ وَقْتٍ أَشَاءُ، وَظَلَلْتُ كَذَلِكَ إِلَى أَوَّلِ شَهْرِ «أَغُسْطُسَ».

^{٣٤} مسرورًا.

^{٣٥} جودته.

^{٣٦} مكان فضاء واسع.

^{٣٧} سور.



(١٢) فَصْلُ الْأَمْطَارِ

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ «أَغُسْطُس» بَدَأَ الْمَطَرُ يَنْهَمِرُ بِشِدَّةٍ إِلَى أَنْ حَلَ مُنْتَصَفُ
 «أَكْتُوبَر» فَبَدَأَتْ تَخِفُّ وَطَاءُ الْمَطَرِ. وَكُنْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — قَدْ نَقَلْتُ إِلَى مَسْكَنِي
 الْأَوَّلِ كُلَّ مَا جَفَفْتُهُ مِنَ الْعِنَبِ قُبَيْلَ حُلُولِ فَصْلِ الْأَمْطَارِ. فَلَمَّا اشْتَدَّ انْهَمَارُ الْمَطَرِ
 وَتَعَذَّرَ عَلَيَّ الْخُرُوجُ، وَجَدْتُ مَا يَكْفِينِي مِنَ الزَّادِ. وَكَانَ الْمَطَرُ يَضْطَرُّنِي فِي بَعْضِ
 الْأَحْيَانِ، إِلَى الْإِنْزَوَاءِ فِي مَغَارَتِي عِدَّةَ أَيَّامٍ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَعَرْتُ أَنَّ زَادِي يُوشِكُ أَنْ يَنْتَهِيَ؛ فَاضْطَرَرْتُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْتِي
مَرَّتَيْنِ. وَقَدْ اضْطَدْتُ جَدِيًّا وَسَلْحَفَاءَ كَبِيرَةً، وَكَانَ لَحْمُهُمَا شَهِيًّا.
وَكَانَ فَطُورِي عُقُودًا مِنَ الْعِنَبِ، وَغَدَائِي شِوَاءَةً مِنْ جَدِي أَوْ سُلْحَفَاءَ، وَعَشَائِي
بَيَضَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا.

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الْمُنْتَمِمُ لِلثَّلَاثَيْنِ مِنْ «سِبْتَمْبَرِ»، انْتَابَتْنِي ذِكْرِيَاتُ مُؤَلِّمَةٍ. وَقَدْ
سَاوَرَتْنِي^{٣٨} حِينَ مَرَّ بِخَاطِرِي أَنَّي حَلَلْتُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الْعَامِ
الْمَاضِي، وَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ عَامٌ بِأَكْمَلِهِ فِي هَذَا الْمَنْفَى. وَلَقَدْ كُنْتُ شَدِيدَ الْيَقْظَةِ فِي مُرَاقَبَةِ
الْفُصُولِ وَحُسْبَانِ أَيَّامِ السَّنَةِ؛ حَتَّى لَا أَفَاجَأَ بِالْأَمْطَارِ. وَقَدْ أَكْسَبَتْنِي الْمَرَانَةُ خِبْرَةً نَادِرَةً
بِالزَّرَاعَةِ، وَنَجَحْتُ أَعْمَالِي نَجَاحًا بَاهِرًا.

(١٣) الْبَيْغَاءُ وَالْجَدْي

وَكُنْتُ دَائِبًا عَلَى الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ. وَلَمْ أَقْصُرْ فِي تَوْفِيرِ الزَّادِ^{٣٩} عِنْدِي قَبْلَ حُلُولِ الْأَمْطَارِ؛
حَتَّى لَا يُزْعَجَنِي نَقْصُ الزَّادِ إِذَا حَبَسَنِي الْمَطَرُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ.
وَرَأَيْتُنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى سِلَالٍ أَضْعُ فِيهَا الْفَاكِهَةَ وَالطَّعَامَ. وَقَدْ وَفَّقْتُ إِلَى صُنْعِهَا
بَعْدَ عَنَاءٍ طَوِيلٍ. وَكُنْتُ أَكْثَرُ مِنَ التَّجَوُّلِ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ. وَقَدْ اسْتَرْعَى بَصْرِي — ذَاتَ
يَوْمٍ — أَرْضٌ فَسِيحَةٌ، وَكَانَ الْيَوْمُ صَحْوًا. وَقَدْ رَأَيْتُهَا مُرْتَفَعَةً، تَمْتَدُّ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى
الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ. وَهِيَ تَبْعُدُ عَنْ جَزِيرَتِي نَحْوَ خَمْسَةِ عَشَرَ مِيلًا، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا
عَنْهَا. وَقَدْ هَدَانِي التَّفَكُّيرُ الطَّوِيلُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الْبَعِيدَةَ تَمْتَدُّ إِلَى بِلَادِ الْبِرَازِيلِ.
وَشَهِدْتُ — فِي أَثْنَاءِ تَجَوُّلِي فِي تِلْكَ السُّهُولِ الْخَضِرِ الْمُزْدَهَرَةِ الْجَمِيلَةِ، ذَاتِ الْأَشْجَارِ
الْبَاسِقَةِ^{٤٠} الْكثِيفَةِ^{٤١} — جَمْعَةً مِنَ الْبَيْغَاوَاتِ.

^{٣٨} خطرت لي.

^{٣٩} جمعه.

^{٤٠} المرتفعة.

^{٤١} الغليظة.

وَقَدْ وُقِّتُ إِلَى اقْتِنَاصِ بَبْغَاءَ صَغِيرَةٍ، ضَرَبْتُهَا بِعَصَايَ، ثُمَّ أَدْفَأْتُهَا بَيْنَ ثِيَابِي،
حَتَّى عَادَتْ إِلَى صَوَابِهَا. وَعُدْتُ بِهَا إِلَى مَسْكَنِي، فَرَأَيْتُ كَلْبِي قَدْ اصْطَادَ جَدِيًّا صَغِيرًا؛
فَأَسْرَعْتُ لِإِنْقَاذِ الْجَدْيِ مِنْ بَيْنِ مَخَالِبِهِ.



وقَدْ عُنِيتُ بِتَرْبِيَةِ الْبَبْغَاءِ وَالْجَدْيِ وَتَأْنِيسِهِمَا.^{٤٢} فَزَبَطْتُ الْجَدْيَ إِلَى وَتْدِي، وَصَنَعْتُ
لِلْبَبْغَاءِ قَفَصًا. وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِمَا زَمَنٌ قَلِيلٌ، حَتَّى أُنْسَا بِي وَارْتَاخَا إِلَى صُحْبَتِي. وَكَانَ
الْجَدْيُ يَتَّبَعُنِي حَيْثُمَا سِرْتُ، وَلَا يَكَادُ يُطِيقُ فِرَاقِي.
وَهَكَذَا سَعِدْتُ — فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — بِصُحْبَةِ هَذَيْنِ الرَّفِيفَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ،
كَمَا سَعِدْتُ بِصُحْبَةِ كُلْبِي وَقَطَّيْتِي مِنْ قَبْلُ.

^{٤٢} جعلهما يأنسان بي ولا يهربان مني.

زَمَنُ الْعُزْلَةِ

(١) أَعْدَاءُ الزَّرَاعَةِ

حَلَّ الْيَوْمُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلَاثِينَ مِنْ «سِبْتَمْبَرٍ»، وَهُوَ الذِّكْرَى الثَّانِيَّةُ لِلْيَوْمِ الْمَشْتُومِ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الْمُوَحِّشَةُ النَّائِيَّةُ، حَيْثُ كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَ الْعَالَمَ وَأَسْتَسْلِمَ لِلْعُزْلَةِ. عَلَى أَنْبِيٍّ وَجَدْتُ فِي الْعَمَلِ رَاحَةً عَظِيمَةً، وَظَفَرْتُ — بِجِدِّي وَدُعُوبِي وَمُثَابَرَتِي^١ — بِنَتَائِجٍ بَاهِرَةٍ. فَجَنَيْتُ فِي آخِرِ الْخَرِيفِ مَحْصُولًا وَافِرًا مِنَ الْحُبُوبِ. وَلَكِنَّ فَرْحِي بِهِ لَمْ يَدُمَ طَوِيلًا؛ فَقَدْ نَغَصَهُ عَلَيَّ عَبَثُ الْجِدَاءِ بِهِ. وَكُنْتُ أَرَى بَعْضَ حَيَوَانِ الْجَزِيرَةِ — وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَرَنْبِ الْجَبَلِيِّ — يَعْثُ بِزُرْعِي فَسَادًا. وَقَدْ اسْتَمَرَّ^٢ الْقَمَحُ — وَهُوَ عَلَى سَوْفِهِ — وَأَغْرَثَهُ لَذَّتُهُ بِإِفْسَادِ مَا زَرَعْتُهُ مِنْهُ. فَلَمْ أَرِ بُدًّا مِنْ تَسْوِيرِ الْحَقْلِ بِسِيَاحِ مِنَ الْأَعْشَابِ الْمُزْتَفِعَةِ. وَقَدْ جَهَدَنِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَسَابِيعَ. وَلَمْ أَلْ جُهْدًا فِي مُطَارَدَةِ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ الْخَبِيثَةِ نَهَارًا، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ رَبَطْتُ الْكَلْبَ إِلَى حَبْلٍ طَوِيلٍ مُثَبَّتٍ فِي بَابِ الْحَقْلِ، فَلَا يَفْتَأُ يَنْبَحُ طُولَ اللَّيْلِ حَتَّى يُزْعِجَهَا؛ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ هَجَرَتِ الْبُقْعَةَ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا، وَلَمْ تَعُدْ تَدْنُو مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ. وَاسْتَرَحْتُ مِنْ عَبَثِ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ^٣ حَتَّى حَانَ وَقْتُ الْحَصَادِ، فَظَهَرَ لِي أَعْدَاءُ جُدُدٍ؛ إِذْ أَقْبَلَتِ الطُّيُورُ عَلَى سَنَابِلِ الشَّعِيرِ تَلْتَهُمَهَا، وَاسْتَمَرَّتْ هَذَا الطَّعَامَ الشَّهِيَّ.

^١ صبري ومواظبتي.

^٢ استطاب.

^٣ ما فعلته من الأذية.

على أَنَّنِي لَمْ أَيْتَسْ مِنَ النَّجَاحِ فِي مُطَارَدَتِهَا، فَظَلَلْتُ أَحْرُسُ حَقْلِي لَيْلَ نَهَارٍ، وَأَصْطَادُ بَبُنْدُقِيَّتِي كُلَّ طَائِرٍ يَدْنُو مِنْ حَقْلِي؛ حَتَّى دُعِرَتِ الطُّيُورُ وَتَمَلَّكَهَا الرُّعْبُ، فَهَجَرَتِ الْحَقْلَ وَمَا يَكْتَنِفُهُ،^٤ وَلَمْ تَجْزُؤْ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْ هَذِهِ الْبُقْعَةِ. وَهَكَذَا تَمَّ لِي الظَّفَرُ، وَارْتِنَاحَ بَالِي، وَنَضِجَ الزَّرْعُ فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ مِنْ «دَيْسَمْبَر».

(٢) أَدَوَاتُ الزَّارِعِ

وَقَدْ اشْتَدَّتْ حَيْرَتِي وَارْتِبَاكِي حِينَ هَمَمْتُ بِجَنِّي هَذَا الْمَحْصُولِ وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ الْأَدَوَاتِ مَا يُسَاعِدُنِي عَلَى ذَلِكَ. وَعَنْ لِي أَنْ أَصْنَعَ مِنْجَلًا، وَهُوَ آلَةٌ مِنَ الْحَدِيدِ مُنْحَنِيَّةٌ يُقَطِّعُ بِهَا الزَّرْعُ.

فَصَنَعْتُهُ مِنْ سَيْفٍ وَغُصْنِ شَجَرَةٍ. وَقَطَعْتُ السَّنَابِلَ، ثُمَّ فَرَكْتُهَا بِيَدَيَّ، وَعَزَمْتُ عَلَى بَذْرِهَا جَمِيعًا فِي الْمَوْسِمِ الْقَابِلِ. وَهُنَا تَمَثَّلَ لِي مَقْدَارُ مَا يُعَانِيهِ الْإِنْسَانُ إِذَا حَاوَلَ — بِمُفْرَدِهِ — أَنْ يَطْفَرَ بِرَغِيفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْخُبْزِ؛ فَقَدْ كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُحْرَاثٍ وَقَاسٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ أَدَوَاتِ الزَّرَاعَةِ، فَإِذَا تَمَّ الْحَصَادُ اشْتَدَّتْ حَاجَتِي إِلَى طَاحُونَةٍ وَمُنْخَلٍ وَفُرْنٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمِلْحِ وَغَيْرِهِ. وَلَكِنَّ الْجِدَّ وَالْمُتَابِرَةَ كَفِيلَانِ بِالتَّغْلِبِ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ. وَقَدْ تَمَّ لِي كُلُّ مَا أَرَدْتُ بِفَضْلِ الْعَزِيمَةِ عَلَى الْعَمَلِ، لِأَنَّنِي كُنْتُ لَا أَضِيعُ وَقْتِي عَبَثًا؛ فَإِذَا هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ لَزِمْتُ بَيْتِي، وَأَقْبَلْتُ عَلَى بَبْغَائِي أَعْلَمُهَا النُّطْقَ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى نَتَائِجِ بَاهِرَةٍ.

(٣) صِنَاعَةُ الْفَخَّارِ

وَلَمَّا كَانَتْ الْحَاجَةُ تَفْتَقُ الْحِيلَةَ،^٥ اضْطَرَرْتُ إِلَى مُزَاوَلَةِ صِنَاعَةِ الْفَخَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِهَا عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ نَجَحْتُ فِي ذَلِكَ — بَعْدَ مَرَانَةٍ طَوِيلَةٍ، وَتَجَارِبَ كَثِيرَةٍ — فَصَنَعْتُ

^٤ ما يحيط به.

^٥ الضرورة تبعث على ابتكار الحيلة.



كَثِيرًا مِّنَ الْجَرَارِ^٦ وَالْأَوَانِي وَالْقِصَاعِ^٧ وَالصَّحَافِ^٨. وَمَا زِلْتُ أُرْتَقِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ حَتَّى بَلَغْتُ حَدًّا جَدِيرًا بِالتَّهْنِئَةِ.

^٦ جمع جرة .

^٧ جمع قصعة.

^٨ جمع صحفة، وهي الطبق.

(٤) الزُّورَقُ الْكَبِيرُ

عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ الْكَثِيرَةَ الْمُرْهَقَةَ لَمْ تُنْسِنِي رَغْبَتِي الشَّدِيدَةَ فِي ارْتِيَادِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ
الَّتِي رَأَيْتُهَا — مِنْ قَبْلُ — تُجَاهَ الْجَزِيرَةِ، فَقَدْ كُنْتُ أَمْلُ أَنْ أَجِدَ فِيهَا وَسِيلَةً لِلْعُودَةِ إِلَى
«لَنْدَن».

وَذَكَرْتُ زُورَقَ السَّفِينَةِ الَّذِي انْقَلَبَ بِرِفَاقِي، فَرَأَيْتُهُ لَا يَزَالُ كَمَا هُوَ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنَ
الشَّاطِئِ مَقْلُوبًا، وَقَدْ غَاصَ جُزْءٌ مِنْهُ فِي رِمَالِ الشَّاطِئِ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَرْفَعَهُ مِنْ مَكَانِهِ،
فَذَهَبَتْ كُلُّ جُهُودِي عَبَثًا.



فَأَقْبَلْتُ عَلَى جُدُوعِ الْأَشْجَارِ، وَبَدَلْتُ كُلَّ مَا فِي وَسْعِي زَمَنًا طَوِيلًا، حَتَّى صَنَعْتُ
زُورَقًا كَبِيرًا يَسَعُ سِتَّةَ وَعِشْرِينَ رَاكِبًا.
وَلَكِنِّي عَجَزْتُ عَنْ نَقْلِهِ إِلَى الْبَحْرِ، وَأَعْيَيْتَنِي الْحِيلُ فِي ذَلِكَ، وَاسْتَحَالَ عَلَيَّ أَنْ
أُزَحِّحَهُ عَنْ مَكَانِهِ، كَمَا اسْتَحَالَ عَلَيَّ أَنْ أُزَحِّحَ زُورَقَ السَّفِينَةِ مِنْ قَبْلُ.

(٥) الزَّوْرَقُ الْجَدِيدُ



وَانْقَضَى الْعَامُ الرَّابِعُ، فَانْتَضَمَتْ أُمُورِي وَاسْتَقَامَتْ. وَقَدْ صَنَعْتُ — فِيمَا صَنَعْتُ — قَلَنْسُوَّةً^٩ كَبِيرَةً مِنْ فِرَاءِ الْجِدَاءِ الَّتِي تَصِيدُهَا، كَمَا صَنَعْتُ مِنْهَا جُلْبَابِي وَسِرْوَالِي

^٩ غطاء رأس.

وَبَعْضَ الثِّيَابِ، لِتَقِينِي غَائِلَةَ الْبُرْدِ فِي الشِّتَاءِ. وَصَنَعْتُ مِظْلَةً لِتَقِينِي غَائِلَةَ الْحَرِّ فِي الصَّيْفِ — فَقَدْ كَانَتْ الْجَزِيرَةُ وَاقِعَةً بِالْقُرْبِ مِنْ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ، وَكَانَ قَيْطُهَا^{١٠} لِذَلِكَ لَا يُحْتَمَلُ — فَسَهَّلْتُ عَلَيَّ السَّيْرَ نَهَارًا مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ، وَأَمَنْتَنِي مِنَ الْمَطَرِ وَالشَّمْسِ. وَكَانَ شُغْلِي الشَّاغِلُ أَنْ أَصْنَعَ زَوْرَقًا أَصْغَرَ مِنَ الزَّوْرَقِ الَّذِي صَنَعْتُهُ. وَلَمْ يَنْتَهِ الْعَامُ الْخَامِسُ حَتَّى أَتَمَمْتُ صُنْعَهُ. وَنَجَحْتُ فِي ذَلِكَ نَجَاحًا بَاهِرًا. فَجَعَلْتُ لَهُ شِرَاعًا، وَتَبَّتْ فِيهِ مِظْلَةٌ كَبِيرَةٌ وَعَقَدْتُ الْعِزْمَ عَلَى الطَّوَافِ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ لِأَتَعَرَّفَ مَدَى هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ الَّتِي كَتَبَ عَلَيَّ الْقَدَرُ أَنْ أَكُونَ مَلِكُهَا، أَوْ — عَلَى الْأَصَحِّ — مَدَى هَذَا السَّجْنِ الَّذِي أَبْتُ عَلَيَّ الْمَقَادِيرُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ حَلِيفَهُ^{١١} وَسَجِينَهُ.

وَهَكَذَا أَعْدَدْتُ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ لِهَذِهِ الرَّحْلَةِ. وَلَمْ أَنْسَ سِلَاحِي لِأُدَافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِي إِذَا حَانَ وَقْتُ الْخَطَرِ. وَأَزْمَعْتُ^{١٢} التَّجَوُّالَ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ، بَعْدَ تَرَدُّدٍ طَوِيلٍ.

(٦) الطَّوَافُ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ

وَبَدَأْتُ هَذِهِ الرَّحْلَةَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ «نُوفَمْبَرٍ»، بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَيَّ سِتَّةُ أَغْوَامٍ فِي مَمْلَكَتِي، أَوْ فِي سَجْنِي إِنْ تَوَخَّيْتُ^{١٣} الصِّدْقَ فِي التَّعْبِيرِ! وَكَانَتْ هَذِهِ السَّيَاحَةُ أَطْوَلَ مِمَّا قَدَّرْتُ.

وَقَدْ تَعَرَّضْتُ — فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ — لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطَارِ، وَلَكِنَّ تَوْفِيقَ اللَّهِ لَزَمَنِي، حَتَّى عُدْتُ إِلَى بَيْتِي الرَّيْفِيِّ — ذَاتَ مَسَاءٍ — وَقَدْ جَهَدَنِي^{١٤} التَّعَبُ، فَاسْتَسَلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ.

^{١٠} حرها.

^{١١} ملازمه.

^{١٢} قدرت.

^{١٣} قصدت.

^{١٤} أضعفني.

(٧) مُفَاجَأَةُ الْبَبْغَاءِ

شَدَّ مَا تَمَلَّكَنِي الدَّهْشُ حِينَ طَرَقَ أُذُنِي صَوْتُ يُنَادِينِي بِاسْمِي، وَيَقُولُ فِي وُضُوحٍ وَجَلَاءٍ: «رُوبِنْسَنُ! إِيهَ يَا رُوبِنْسَنُ! هَا أَنْتَ ذَا يَا رُوبِنْسَنُ! مَسْكِينُ أَنْتَ يَا رُوبِنْسَنُ! أَيْنَ أَنْتَ؟ وَأَيْنَ كُنْتَ؟ وَكَيْفَ تَجِدُكَ يَا رُوبِنْسَنُ كُرُوزُو؟»
وَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّني حَالِمٌ، وَلَكِنَّ الصَّوْتَ عَادَ يَقُولُ: «رُوبِنْسَنُ كُرُوزُو! إِيهَ يَا رُوبِنْسَنُ!»

فَاسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي الْعَمِيقِ، وَقَدْ تَمَلَّكَتَنِي الدَّهْشَةُ وَالذُّعْرُ.
وَمَا تَبَيَّنْتُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ حَتَّى عَاوَدْتَنِي الطُّمَأْنِينَةُ، وَسَرَّيَ عَنْ نَفْسِي،^{١٥} إِذْ عَلِمْتُ أَنَّ بَبْغَائِي هِيَ مُصَدِّرُ هَذَا الصَّوْتِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا قَائِمَةً عَلَى السِّيَاحِ، فَعَجِبْتُ مِنْ اهْتِدَائِهَا إِلَى هَذَا الْبَيْتِ، وَقَدْ تَرَكَتُهَا فِي الْكُهْفِ. وَعَجِبْتُ مِنْ تَخِيرِهَا هَذَا الْمَكَانَ. وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللُّغْزِ. ثُمَّ نَادَيْتُهَا بِاسْمِهَا، فَاسْرَعَتْ إِلَيَّ، وَوَقَفَتْ عَلَى إِبْهَامِي، وَهِيَ تُكَرِّرُ سُؤَالَهَا مَسْرُورَةً مُبْتَهَجَةً بِلِقَائِي: «أَيْنَ كُنْتَ يَا رُوبِنْسَنُ كُرُوزُو؟ أَيْنَ كُنْتَ يَا مَسْكِينُ؟»
فَأَخَذْتُهَا مَعِيَ إِلَى الْكُهْفِ، حَيْثُ عِشْتُ زُهَاءً عَامَ^{١٦} فِي عُزْلَةِ السَّجِينِ وَلَمْ يَكُنْ يُنْغَصُّ^{١٧} عَلَيَّ صَفَائِي وَسَعَادَتِي فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ إِلَّا أَنَّهَا مُقْفَرَةٌ عَازِبَةٌ^{١٨} لَيْسَ بِهَا أَنْيْسُ.

(٨) صَيْدُ الْمَعِيرِ

وَقَدْ أَتَقَنْتُ كَثِيرًا مِنَ الصَّنَاعَاتِ، وَبَرَعْتُ فِيهَا بَرَاعَةً نَادِرَةً، وَنَجَحْتُ فِي صِنَاعَةِ الْفَخَّارِ وَعَمَلِ السَّلَالِ. وَكُنْتُ أَصْطَادُ الْمَعِيرِ وَالسَّلَاحِفَ كُلَّمَا احْتَجْتُ إِلَى ذَلِكَ، فَرَأَيْتُ الْبَارُودَ الَّذِي ادَّخَرْتُهُ عِنْدِي قَدْ نَقَصَ، فَخَشِيتُ أَنْ يَنْفَدَ، وَبِذَلِكَ أَعْجَزُ أَنْ أَصْطَادَ شَيْئًا مِنَ الْحَيَوَانِ.

^{١٥} ذهب عنها الفزع.

^{١٦} نحو سنة.

^{١٧} يكدر.

^{١٨} بعيدة.



فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَغْيِيرِ حُطَّتِي^{١٩} هَذِهِ، فَنَصَبْتُ شِبَاكًا لِأَصْطَادَ مَعِيزًا عَلَى قَيْدِ
الْحَيَاةِ. وَلَمْ تَكُنْ شِبَاكِي صَالِحَةً لِصَيْدِهَا، فَقَدْ أَفْلَتَتْ مِنْهَا الْمَعِيزُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا،
لِضَعْفِ حَبَالِهَا. فَلَجَأْتُ إِلَى طَرِيقَةٍ أُخْرَى.

وَذَلِكَ أَنِّي حَفَرْتُ حُفْرًا عَمِيقَةً فِي الْجِهَاتِ الَّتِي اعْتَادَتِ الْمِعْرَى أَنَّ تَرْتَادَهَا،^{٢٠}
وَعَطَيْتُ تِلْكَ الْحَفَرَ بِشَبَاكِ مِنْ شَجَرِ الصَّفْصَافِ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْهَا طَبَقَةً مِنَ التُّرَابِ،
وَعَرَسْتُ فِيهَا سَنَابِلَ مِنَ الرُّزِّ وَالشَّعِيرِ. وَقَدْ أَحْقَقْتُ^{٢١} هَذِهِ الطَّرِيقَةَ — كَمَا أَحْقَقْتُ
سَابِقَتُهَا مِنْ قَبْلُ — فَقَدْ كَانَتِ الْمَعِيرُ تَنْفِرُ مِنْهَا. ثُمَّ لَمْ تَلْبُثْ أَنْ خُدِعْتُ — بَعْدَ قَلِيلٍ
— فَهَوَى فِي إِحْدَى الْحَفَرِ تَيْسٌ عَنِيدٌ؛ فَلَمْ أَفْلَحْ فِي تَسْكِينِ ثَوْرَتِهِ وَهَيَاجِهِ، فَاضْطُرَرْتُ
إِلَى إِطْلَاقِهِ. وَلَوْ أَنَّنِي تَرَكْتُهُ فِي الْحَفْرَةِ أَبَاقًا حَتَّى يُدَوِّخَهُ الْجُوعُ فَيَسْلُسَ^{٢٢} قِيَادَهُ، لَتَمَّ
لِي مَا أُرَدْتُ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ لَمْ تَمُرَّ بِخَاطِرِي إِلَّا نَبِيْشًا.^{٢٣}

ثُمَّ وَقَعَ فِي حُفْرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مَاعِزَتَانِ صَغِيرَتَانِ وَجَدَيَّ صَغِيرٌ، فَأَخَذْتُهَا جَمِيعًا إِلَى
مَسْكَنِي. وَقَدْ أَبَتْ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئًا. ثُمَّ رَاضَهَا الْجُوعُ،^{٢٤} وَاضْطَرَّهَا إِلَى أَكْلِ مَا قَدَّمْتُ لَهَا
مِنَ الْحُبُوبِ.

وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي تَهْيِئَةِ مَرْعَى خِصْبٍ، وَسَوَّرْتُهُ بِسِيَاحٍ مَتِينٍ مِنَ الْأَعْشَابِ الْكَثِيفَةِ،
حَتَّى لَا تَجِدَ إِلَى الْفِرَارِ سَبِيلًا.

وَوَظَلْتُ أَنْعَمُهَا بِأَحْسَنِ الْأَوَانِ الطَّعَامِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِهَا مِنْ سَنَابِلِ الشَّعِيرِ
وَحُبُوبِ الرُّزِّ حَتَّى أَنْسَتْ بِي، فَفَكَكْتُ رِبَاطَهَا فَلَمْ تَهْرُبْ مِنِّي، وَظَلْتُ تَتَّبِعُنِي أَنِّي
سِرْتُ، وَتَتَّغَوُ^{٢٥} فَرَحَهُ بِمَقْدَمِي كُلَّمَا رَأْنِي. وَبَعْدَ عَامٍ وَنِصْفٍ عَامٍ أَصْبَحَ لَدَيَّ قَطِيعٌ^{٢٦}
لَا يَقِلُّ عَنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَدِيًّا وَعَنْزًا. ثُمَّ تَضَاعَفَ الْعَدَدُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ، وَأَصْبَحَتْ حَيَاتِي

^{٢٠} تروح فيها وتجيء.

^{٢١} لم تنجح.

^{٢٢} يلين.

^{٢٣} بعد فوات الفرصة.

^{٢٤} ذللها.

^{٢٥} تردد صوتها.

^{٢٦} جمع.

رَعْدًا،^{٢٧} وَعَيْشَتِي وادِعَةً نَاعِمَةً؛ فَقَدْ كَانَتْ تُدِرُّ^{٢٨} مَقَادِيرَ وَاغِرَةً مِنَ اللَّبَنِ. فَلَمْ أَضِعْ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، وَعَزَمْتُ عَلَى صُنْعِ الْجُبْنِ وَالزُّبْدِ مِنَ اللَّبَنِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِذَلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ. وَمَا زِلْتُ أُدْرِبُ نَفْسِي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ، حَتَّى وُفِّقْتُ إِلَيْهِ، وَنَجَحْتُ فِي تَحْقِيقِهِ أَكْبَرَ نَجَاحٍ.

(٩) رِفَاقُ «رُوبِنْسَن»

وَكَانَتْ مَائِدَتِي — فِي كُلِّ يَوْمٍ — حَافِلَةً^{٢٩} بِشَتَّى أَلْوَانِ الْغِذَاءِ. وَقَدْ نَعِمْتُ بِرِفَاقِي الْخُلَصَاءِ: فَالْبَبَّغَاءُ تُنَادِمُنِي^{٣٠} وَتُسَلِّينِي بِحَدِيثِهَا، وَالْكَلْبُ يَجْلِسُ إِلَى يَمِينِي — عَلَى الْمَائِدَةِ — وَيَجْلِسُ الْقِطَّانُ إِلَى يَسَارِي مُتَقَابِلَيْنِ. وَقَدْ عَلِمَ الْقَارِئُ — فِيمَا سَبَقَ — أَنَّني أَحْضَرْتُ مَعِي قِطَّيْنِ مِنَ السَّفِينَةِ؛ فَلْيَعْلَمِ الْقَارِئُ الْآنَ أَنَّهُمَا مَاتَا مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، بَعْدَ أَنْ نَسَلَا^{٣١} كَثِيرًا مِنَ الْقِطَطِ، وَلَمْ يَخْلُصْ لِي مِنْهَا غَيْرُ هَذَيْنِ الْقِطَّيْنِ. أَمَّا إِخْوَتُهُمَا فَكَانَتْ شَرِيرَةً مَآكِرَةً، تَسْرِقُ كُلَّ مَا تَلْقَاهُ فِي طَرِيقِهَا مِنَ الطَّعَامِ؛ فَطَرَدْتُهَا مِنْ بَيْتِي شَرَّ طَرْدَةٍ، بَعْدَ أَنْ نَكَلْتُ بِهَا.^{٣٢} فَهَرَبَتْ إِلَى الْغَابَةِ، وَلَمْ تَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى عَادَتْ إِلَى طَبْعِهَا الْوَحْشِيِّ الشَّرِيسِ.

(١٠) زِيَّ «رُوبِنْسَن»

لَعَلَّ الْقَارِئَ قَدْ اشْتَقَّ إِلَى تَعَرُّفِ الزِّيِّ^{٣٣} الَّذِي اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَجُولَ فِي مَمْلَكَتِي الصَّغِيرَةِ، فَلَأُمَثِّلَ لَهُ ذَلِكَ الزِّيَّ الْعَجِيبَ:

^{٢٧} هَانَّةٌ.

^{٢٨} تعطي.

^{٢٩} مملوءة.

^{٣٠} تجالسني.

^{٣١} ولدا.

^{٣٢} أذيتها.

^{٣٣} الملبس.

زَمَنُ الْعُزْلَةِ

كَانَتْ قَلَنْسُوتِي^{٣٤} مُرْتَفَعَةً، وَقَدْ صَنَعْتُهَا مِنْ جِلْدٍ عَنَزٍ. وَكَانَتْ عَدَبْتُهَا^{٣٥} مُدْلَاةً عَلَى قَفَايَ لِتَحْمِيَنِي مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ. وَكَانَ سِرْوَالِي مَصْنُوعًا مِنْ جِلْدِ تَيْسٍ هَرِمٍ، وَالشَّعْرُ يَتَدَلَّى مِنْهُ إِلَى نِصْفِ سَاقِي.



^{٣٤} غطاء رأسي.

^{٣٥} طرفها.

وَكُنْتُ أَضْعُ فِي حِزَامِي — وَهُوَ أَيْضًا مِنْ جِلْدِ الْمَعِيزِ — مِئْشَارًا وَقَدُومًا، وَأَحْمِلُ عَلَى
كَتِفِي بُنْدُقِيَّةً، وَأَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِي سَلَّةَ كَبِيرَةٍ، فِيهَا طَعَامِي وَشَرَابِي، وَفِي يَدَيَّ مِظَلَّتِي،
لِتَقِيَنِي لَفْحَ الشَّمْسِ،^{٣٦} وَهَطُولَ الْأَمْطَارِ.

^{٣٦} حرها.

الفصل السابع

جُمعة

(١) آثارُ أقدامٍ

وفي ذاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ آثارَ أقدامٍ واضِحَةً عَلَى الرَّمْلِ؛ فَتَمَلَّكَنِي الدُّعْرُ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ صَاعِقَةً انْقَضَتْ عَلَيَّ.

وَتَلَقَّيْتُ حَوْلِي خَائِفًا، وَأَزْهَفْتُ أُذُنِي^١ فَلَمْ أَرِ إِنْسَانًا، وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتًا. وَصَعِدْتُ إِلَى أَعْلَى هَضْبَةٍ مُرْتَفَعَةٍ، وَأَجَلْتُ لِحَاضِي فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ إِنْسِيًّا. وَقَدْ كِدْتُ أَطُنُّنِي وَاهِمًا^٢ فِيمَا رَأَيْتُ وَلَكِنَّ آثارَ الْقَدَمِ — وَهِيَ عَارِيَّةٌ — لَمْ تَدْعُ لِي مَجَالًا لِلشَّكِّ، فَقَدْ رَأَيْتُ الْأَصَابِعَ وَالْعِقَبَ مُرْتَسِمَةً عَلَى الرَّمْلِ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي رَيْبٌ^٣ فِي حَقِيقَةِ مَا رَأَيْتُ، فَأَسْرَعْتُ إِلَى كَهْفِي، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ جَيْشًا لَجِبًا^٤ يُطَارِدُنِي. وَبِتُّ لَيْلَةً نَابِغِيَّةً^٥، وَلَمْ يَزِرِ النَّوْمُ جَفْنِي حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ.

^١ أصغيت.

^٢ متخيلاً.

^٣ شك.

^٤ كبيراً.

^٥ ليلة طويلة حافلة بالهموم.

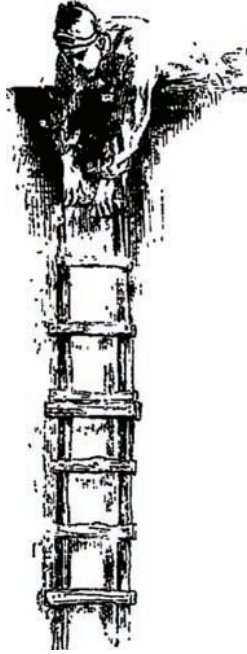


وَلَزِمْتُ بَيْتِي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةً، ثُمَّ اضْطَرَّنِي الْجُوعُ إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى بَيْتِي الْآخَرِ
الَّذِي بَنَيْتُهُ بَيْنَ الْكُرُومِ.^٦

^٦ أشجار العنب.

(٢) الْحَيْطَةُ

وَهَكَذَا تَمَلَّكَتَنِي الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ، فَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ — فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ — خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا،
لَمْ أَشْهَدْ فِيهَا أَحَدًا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ رُؤْيَايَ أَثَرِ الْقَدَمِ.
ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: «لَعَلَّ بَعْضَ سُكَّانِ تِلْكَ الْقَارَّةِ الْمُجَاوِرَةِ قَدْ وَفَدُوا عَلَى جَزِيرَتِي،
عَلَى أَنَّهُمْ سَيَتَرَكُونَهَا بَعْدَ أَنْ يَجِدُوهَا غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلْإِقَامَةِ.»
وَرَأَيْتُ أَنْ أَحْتَاطَ لِلطَّوَارِي، حَتَّى لَا يُفَاجِئَنِي الْأَعْدَاءُ؛ فَزِدْتُ فِي تَحْصِينِ مَغَارَتِي،
كَمَا حَصَّنْتُ بَيْتِي الْآخَرَ.



وَكُنْتُ لَا أَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا مُسْتَعِينًا بِسُلَمَيْنِ، فَإِذَا انْتَهَيْتُ مِنْ صُعودِي الْأَوَّلِ رَفَعْتُ السُّلَمَ، ثُمَّ وَضَعْتُهُ فَوْقَ صَخْرَةٍ نَائِيَةٍ^٧ لِأَصِلَ إِلَى حِصْنِي. ثُمَّ رَفَعْتُ السُّلَمَ مَرَّةً أُخْرَى، لِيُصْبِحَ مُسْتَحِيلًا عَلَى كَائِنٍ كَانَ أَنْ يَصْعَدَ إِلَيَّ. وَلَمْ يَمُضْ عَلَيَّ عَامَانِ — بَعْدَ ذَلِكَ — حَتَّى أَصْبَحْتُ عَلَى أَتَمِّ أَهْبَةِ^٨ لِلنَّجَاةِ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

(٣) آثَارُ الْغِيلَانِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كُنْتُ أَزْتَادُ الْجَزِيرَةَ عَلَى عَادَتِي، وَاتَّعَرَّفُ الْجِهَاتِ النَّائِيَةِ الَّتِي لَمْ تَطَّأَهَا قَدَمَايَ مِنْ قَبْلُ، فَرَأَيْتُ مِنْ آثَارِ الْمُتَوَحِّشِينَ مَا فَرَّعَنِي، وَمَلَأَ قَلْبِي رُغْبًا وَهَلَعًا، فَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَوَحِّشِينَ يَجِيئُونَ بِالْأَسْرَى — بَعْدَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِمْ فِي مَعَارِكِهِمْ^٩ — إِلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ يَشُورُونَ لِحُومِهِمْ عَلَى النَّارِ وَيَأْكُلُونَهَا. وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ^{١٠} مُبْعَثَرَةً فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ، عَلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَ الرَّمَادِ الْكَثِيرِ الَّذِي خَلَفْتُهُ النَّارُ.

وَرَجَعْتُ إِلَى مَسْكَنِي مَهْمُومًا شَدِيدَ الْأَلَمِ مِمَّا رَأَيْتُ. وَتَبَيَّنَ لِي — حِينَئِذٍ — أَنَّ آثَارَ تِلْكَ الْأَقْدَامِ الَّتِي رَأَيْتُهَا مُنْذُ عَامَيْنِ، لَمْ تَكُنْ إِلَّا آثَارَ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانِ، فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي قَلِيلًا، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ هَذَا السَّرَّ الَّذِي لَمْ أَهْتَدِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مَدَى عَامَيْنِ، وَكَانَ مَجْلِبَةً^{١١} لِلْخَوْفِ وَالْفَزَعِ.

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانِ لَا يَبْحَثُونَ عَنْ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَجِيئُونَهَا إِلَّا لِيَقِيمُوا مَادِبَهُمْ^{١٢} فِيهَا، كُلَّمَا ظَفَرُوا بِأَسْرَاهُمْ فِي الْحُرُوبِ.

^٧ بعيدة.

^٨ استعداد.

^٩ حروبهم.

^{١٠} الأعضاء.

^{١١} سببًا.

^{١٢} مجالس أكلهم.

وَلَقَدْ مَرَّ بِي ثَمَانِيَّةَ عَشَرَ عَامًا، لَمْ تَقَعْ عَيْنَايَ — فِي أَثْنَائِهَا — عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ. فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ اعْتَصَمْتُ^{١٣} بِالْحَذَرِ، وَأَعَدَدْتُ الْعُدَّةَ لِلطَّوَارِي؛ حَتَّى لَا تُفَاجِئَنِي الْحَوَادِثُ عَلَى غِرَّةٍ.^{١٤}

(٤) مَادُبَةُ الْغِيلَانِ

وَفِي شَهْرِ «دِسْمَبَرٍ» — وَكَانَ قَدْ مَرَّ عَلَيَّ حِينَئِذٍ ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ عَامًا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — لَمْ أَخْرُجْ مِنْ بَيْتِي لِلْحَصَادِ فِي فَجْرِ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى رَأَيْتُ نُورًا بِالْقُرْبِ مِنْ الشَّاطِئِ، عَلَى بَعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنْ بَيْتِي. وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانَ يَرْتَادُونَ هَذِهِ الْبُقْعَةَ مِنْ قَبْلُ؛ فَدَهَشْتُ، وَتَمَلَّكَنِي الرُّعْبُ وَالْفَرَعُ. وَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي مُسْرِعًا، وَرَفَعْتُ السُّلْمَ، وَتَاهَبْتُ لِلدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِي. وَظَلَلْتُ أَتَرَقَّبُ الْعَدُوَّ سَاعَتَيْنِ، ثُمَّ لَمْ أَطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبَقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ فَصَعِدْتُ حَتَّى بَلَغْتُ أَعْلَى الصَّخْرَةِ — بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ عَلَيْهَا السُّلْمَيْنِ — وَانْبَطَحْتُ عَلَى الْأَرْضِ. وَنَظَرْتُ إِلَيْهِمْ بِمِنْظَارِي؛ فَرَأَيْتُ تِسْعَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانِ جَالِسِينَ — فِي شَكْلِ حَلْقَةٍ — حَوْلَ نَارٍ مُوقَدَةٍ، لِيُهَيِّئُوا طَعَامَهُمْ مِنَ الْأَسْرَى الَّذِينَ جَاءُوا بِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ.

وَقَدْ جَاءَ الْغِيلَانُ عَلَى زُورَقَيْنِ، وَجَذَبُوهُمَا إِلَى الشَّاطِئِ، وَانْتَظَرُوا الْجَزَرَ حَتَّى يَعُودُوا أَدْرَاجَهُمْ. فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ لَا يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ إِلَّا فِي أَوْقَاتِ الْجَزْرِ، فَاطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي إِلَى ذَلِكَ، وَأَصْبَحْتُ أَمْشِي فِي الْجَزِيرَةِ آمِنًا، فِي أَوْقَاتِ الْمَدِّ، فَإِذَا انْحَسَرَ مَاءُ الْبَحْرِ أَخَذْتُ حَذَرِي مِنْهُمْ، وَاسْتَعَدَدْتُ لِلطَّوَارِي وَالْمُفَاجَأَاتِ. وَلَمْ يَبْدَأِ الْجَزْرُ حَتَّى رَكِبُوا الزُّورَقَيْنِ. بَعْدَ أَنْ رَقَصُوا طَوِيلًا، وَظَلُّوا يَجْدُفُونَ بِقُوَّةٍ حَتَّى اخْتَفَوْا عَنْ نَاضِرِي، فَاسْرَعْتُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانُ؛ فَرَأَيْتُ — مِنْ أَثَرِ الْمَادُبَةِ الَّتِي أَقَامُوهَا — مَا رَوَعَنِي؛ رَأَيْتُ الْعِظَامَ الْبَشَرِيَّةَ مُنَنَّاثِرَةً حَوْلَ النَّارِ، فَتَارَتْ نَفْسِي، وَكِدْتُ أَتَمَيِّزُ

^{١٣} تمسكت.

^{١٤} غفلة.



مِنَ الْغَيْظِ. وَقَدْ اشْتَدَّ حَنَقِي^{١٥} عَلَى هَذِهِ الْقَسْوَةِ، وَعَزَمْتُ عَلَى الْفَتَكِ بِأَوَّلِ مَنْ أَقَابِلُهُ مِنْ
هَؤُلَاءِ الْغِيلَانِ.

^{١٥} زاد غيظي.



(٥) نَجاةُ الْأَسِيرِ

وَضَلَلْتُ مُصِرًّا عَلَى مُنَاجَرَةِ^{١٦} الْغِيلَانِ مُدَّةً طَوِيلَةً. وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، لَمْ أَعُثْ — فِي أَثْنَائِهَا — عَلَى أَثَرٍ لِهَؤُلَاءِ الْهَمَجِ.

وَفِي صَبَاحِ يَوْمٍ رَأَيْتُ عَلَى الشَّاطِئِ سِتَّةَ زَوَارِقَ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ عَدَدَ الْقَادِمِينَ لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِينَ. فَرَجَعْتُ إِلَى حِصْنِي، وَرَأَيْتُهُمْ بِمِنْظَارِي؛ فَكَانَ عَدْدُهُمْ كَمَا تَوَقَّعْتُ مِنْ قَبْلُ. وَتَأَهَّبْتُ لِمُنَاجَرَتِهِمْ، كَلَّفَنِي ذَلِكَ مَا كَلَّفَنِي. وَرَأَيْتُهُمْ يَرْقُصُونَ وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِمُ الْمَرَحُ.^{١٧} ثُمَّ أَحْضَرُوا أَسِيرِينَ، فَقَتَلُوا أَحَدَهُمَا، وَانْتَهَزَ الثَّانِي فُرْصَةً اشْتِغَالِهِمَا بِالْأَوَّلِ فَلَاذًا بِالْفِرَارِ. وَظَلَّ يَعْدُو بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ، وَتَبِعَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْغِيلَانِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا اللَّحَاقَ بِهِ.

ثُمَّ اغْتَرَضَهُ خَلِيجٌ صَغِيرٌ؛ فَالْقَى بِنَفْسِهِ فِيهِ، وَسَبَحَ بِقُوَّةٍ عَجِيبَةٍ حَتَّى أَذْرَكَ الشَّاطِئَ الْآخَرَ. وَلَمْ يُبَالِ بِارْتِفَاعِ الْمَدِّ وَاصْطِخَابِ الْأَمْوَاجِ.

^{١٦} محاربة.

^{١٧} الفرح.

وَتَعَقَّبَهُ اثْنَانِ، وَعَادَ الثَّالِثُ إِلَى رِفَاقِهِ.
وَرَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِإِنْفَازِ هَذَا الْأَسِيرِ؛ لِأَنِّي كُنْتُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى خَادِمٍ
يُعَاوَنُنِي فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ الْعَارِضَةِ.
فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِمْ — وَفِي يَدَيَّ بُنْدُقَيْتَيَّ — وَأَشْرْتُ إِلَى الْأَسِيرِ أَنْ يَقِفَ؛ فَلَمْ تَطْمَئِنَّ
نَفْسُهُ إِلَيَّ، وَخَشِيَ أَنْ يَدْنُو^{١٨} مِنِّي، وَحَسِبَنِي مِنْ أَعْدَائِهِ. ثُمَّ فَاجَأَتْ أَحَدَ الْمُتَوَحِّشِينَ
اللَّذِينَ يَتَّبِعَانِهِ، فَضَرَبَتْهُ بِقُبْضَةِ بُنْدُقَيْتَيَّ ضَرْبَةً شَدِيدَةً؛ فَخَرَّ صَرِيحًا^{١٩} عَلَى الْأَرْضِ.
وَحَاوَلَ الثَّانِي أَنْ يُفَوِّقَ^{٢٠} إِلَيَّ سَهَامَهُ؛ فَعَاجَلْتُهُ بِرِصَاصَةٍ أَرَدْتُهُ — مِنْ فُورِهِ — قَتِيلًا.
وَوَقَفَ الْأَسِيرُ الْهَارِبُ — حِينَنَدِ — وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الذُّعْرُ حِينَ سَمِعَ دَوِيَّ^{٢١} الرِّصَاصِ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمَثَلِ ذَلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ. فَأَشْرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَدْنُو مِنِّي؛ فَتَرَدَّدَ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِي،
فَأَشْرْتُ إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً؛ فَاشْتَدَّ فَرْعُهُ، وَظَلَّ يَتَقَدَّمُ خُطَوَاتٍ يَسِيرَةً^{٢٢}، ثُمَّ يَقِفُ مُتَرَدِّدًا
وَقَدْ أَذْهَلَهُ الرُّعْبُ. فَأَشْرْتُ إِلَيْهِ إِشَارَةً ثَالِثَةً، وَأَنَا أَحَاوِلُ جَهْدِي أَنْ أُطْمَئِنِّهُ وَأُسَكِّنَ مِنْ
رُوعِهِ. فَتَقَدَّمَ حَتَّى دَانَانِي، وَجَثَا^{٢٣} أَمَامِي مُتَوَسِّلًا ضَارِعًا؛ فَهَشَشْتُ لَهُ، فَاثْنَنْتِي يَقْبَلُ
قَدَمِي؛ فَتَلَطَّفْتُ لَهُ مُتَوَدِّدًا حَتَّى أَذْهَبَتْ عَنْهُ الْخَوْفُ.
ثُمَّ صَحْبْنُهُ إِلَى مَغَارَتِي، وَأَطْعَمْتُهُ وَسَقَيْتُهُ، وَأَشْرْتُ إِلَى كَوْمَةٍ مِنَ الْقَشِّ، لِيَتَّخِذَهَا
فِرَاشًا لَهُ؛ فَذَهَبَ لِيَنَامَ.

^{١٨} يقرب.

^{١٩} وقع ساقطًا.

^{٢٠} يوجه.

^{٢١} صوت.

^{٢٢} قليلة.

^{٢٣} قعد على ركبتيه.

(٦) «جُمُعَة»

وَهَكَذَا انْقَضَى زَمَنُ الْعُزْلَةِ، وَأَصْبَحَ لِي — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — رَفِيقٌ أَمِينٌ، شُجَاعُ الْقَلْبِ، فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ؛ لَمْ تَكُنْ سَنُهُ تَرِيدُ عَلَى خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا. وَكَانَ هَذَا الْخَادِمُ مِثَالِ النَّشَاطِ وَالذِّكَاةِ وَالْوَدَاعَةِ.

وَلَمْ يَنْمِ نِصْفَ سَاعَةٍ حَتَّى اسْتَيْقَظَ، وَخَرَجَ مِنَ الْكَهْفِ مُسْرِعًا، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيَّ — وَكُنْتُ أَحْلُبُ عِزًّا — فَاِنْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي، وَرَفَعَهَا فَوْقَ رَأْسِهِ، لِيَفْهَمَنِي أَنَّهُ طَوْعُ أَمْرِي وَرَهْنُ إِشَارَتِي. فَهَشَشْتُ لَهُ وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى رَكَنَ إِلَيَّ، وَسَرَّيَ عَنْ نَفْسِهِ،^{٢٤} وَانْقَضَى مَا كَانَ يُسَاوِرُهُ^{٢٥} مِنَ الْقَلَقِ.

ثُمَّ بَذَلْتُ جُهْدِي فِي تَعْلِيمِهِ لُغَتِي، لِيَسْهَلَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَفَاهَمَ مَعًا. وَقَدْ سَمَّيْتُهُ «جُمُعَة»؛ لِأَنَّنِي أَنْقَذْتُهُ مِنَ الْهَلَاكِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجَمْعِ، وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُهُ فِيهِ. ثُمَّ أَشْرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُسَمِّيَنِي «السَّيِّدَ» وَعَلَّمْتُهُ لَفْظَتِي: «نَعَمْ» وَ«لَا». ثُمَّ قَدَّمْتُ لَهُ جَرَّةً، وَمَلَأْتُ الْجَرَّةَ لَبَنًا، وَغَمَسْتُ فِيهَا قِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ وَأَكَلْتُ. وَأَشْرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِثْلِي؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَقْلِيدِي فِيمَا رَأَى مِنِّي. وَقَدْ اسْتَسَاعَ هَذَا الطَّعَامَ،^{٢٦} وَبَدَأَ عَلَى وَجْهِهِ السُّرُورُ. ثُمَّ صَنَعْتُ لَهُ ثِيَابًا كَثِيَابِي، وَقَلَنْسُوَةً مِنْ جِلْدِ أَرْزَبٍ. وَصَنَعْتُ لَهُ — فِي الْيَوْمِ التَّالِي — كُوْخًا بِالْقُرْبِ مِنْ كَهْفِي لِيَنَامَ فِيهِ؛ لِأَنَّنِي كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تُعَاوِدَهُ^{٢٧} وَحَشِيَّتُهُ، فَيَفْتِكُ بِي — فِي أَثْنَاءِ نَوْمِي — وَيَأْكُلَنِي.

عَلَى أَنَّ الْإَيَّامَ أَفْنَعْتَنِي — بَعْدَ ذَلِكَ — بِإِخْلَاصِهِ؛ فَلَمْ أَرَنِى فِي حَاجَةٍ إِلَى الْحَذَرِ مِنْهُ. وَقَدْ وَفَى لِي^{٢٨} وَفَاءَ الْوَلَدِ لِأَبِيهِ، وَكَانَ مُسْتَعِدًّا لِبَدْلِ رُوحِهِ فِدَاءً لِي. وَمَرَّتْ بِنَا الْإَيَّامُ سَعِيدَةً وَادِعَةً.^{٢٩}

^{٢٤} ذهب همه.^{٢٥} يشغله.^{٢٦} وجده لذيقًا.^{٢٧} ترجع إليه.^{٢٨} حافظ علي.^{٢٩} هادئة.



وَكُنْتُ — فِي ذَاتِ يَوْمٍ — سَائِرًا مَعَ «جُمُعَةٍ» فِي أَحَدِ الْأَخْرَاجِ، فَأَطْلَقْتُ رَصَاصَةً
عَلَى أَحَدِ الْجِدَاءِ؛ فَصَرَغَتْهُ. ٣٠ وَمَا رَأَنِي صَرَغْتُ الْجَدْيَ — وَأَنَا عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنْهُ
— حَتَّى اشْتَدَّ نُغْرُهُ، وَانْتَضَمَهُ الرُّعَاشُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ. فَقَدْ أَذْهَلَهُ صَوْتُ الرِّصَاصَةِ،

٣٠ قَتَلْتَهُ.



وَوَظَلَّ يَبْحَثُ فِي ثِيَابِهِ، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ أَصَابَتْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ. فَلَمَّا أَيْقَنَ أَنَّهُ لَمْ يُصِبْهُ أَقْلٌ ضَرَرَ، انْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي ضَارِعًا^{٣١} أَلَّا أَقْتُلَهُ. فَطَمَأْنَنْتُهُ — مَرَّةً أُخْرَى — وَلَاطَفْتُهُ، وَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ لِيُخْضِرَ الْجَدْيَ. ثُمَّ أَرَيْتُهُ بُنْدُقِيَّتِي، وَصَوَّبْتُهَا إِلَى بَيْغَاءِ

^{٣١} رَاجِيًا.

جَائِمَةٌ^{٣٢} عَلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنِي أُرِيدُ صَيْدَ تِلْكَ الْبَبْغَاءِ. وَمَا أَطْلَقْتُ عَلَيْهَا الرِّصَاصَةَ حَتَّى اشْتَدَّ دُعْرُهُ، وَعَجِبَ مِمَّا فَعَلْتُ أَشَدَّ الْعَجَبِ، وَتَمَلَّكْتُهِ الْحَيْرَةُ، وَأَصْبَحَ يَرْتَعِدُ خَوْفًا كُلَّمَا رَأَى تِلْكَ الْبُنْدُوقِيَّةَ.

وَكَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ يُكَلِّمُهَا مُسْتَعِظًا، ضَارِعًا إِلَيْهَا أَنْ تَبْقِيَ عَلَى حَيَاتِهِ، وَالَّا تَصْرَعُهُ كَمَا صَرَعَتْ غَيْرَهُ مِنْ قَبْلُ! وَلَمَّا جَاءَ الْمَسَاءُ سَلَخْتُ الْجَدْيَ، وَشَوَيْتُهُ، وَأَطْعَمْتُ «جُمُعَةً» مِنْ لَحْمِهِ؛ فَاسْتَمْرَأَهُ.^{٣٣} وَأَصْبَحَ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — يَعَافُ^{٣٤} اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ، وَلَا يَسْتَسِيغُهُ طَعَامًا.

(٧) نَشَاطُ «جُمُعَةٍ»

وَفِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ دَرَبْتُ «جُمُعَةً» عَلَى الْحَرْثِ وَالْبَذْرِ، وَوَضَعِ الشَّعِيرِ فِي السَّلَالِ، وَطَخِنِهِ وَعَجِنِهِ وَحَبِزِهِ. وَلَمْ يَمُضْ عَلَيْهِ زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى أَكْسَبَتْهُ الْمَرَانَةُ قُدْرَةً نَادِرَةً عَلَى صُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ دَرَبْتُهُ عَلَيْهِ. وَأَصْبَحَ لِي خَيْرُ مِعْوَانٍ، بِفَضْلِ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنَ الذِّكَاةِ وَالنَّشَاطِ وَالْإِخْلَاصِ. وَشَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ تَغْمُرُنِي،^{٣٥} مُنْذُ وَجَدْتُ ذَلِكَ الْمُعِينَ الذَّكِيَّ. وَقَدْ أَصْبَحَ يُخْلِصُ لِي بِمِقْدَارِ مَا أُخْلِصُ لَهُ، وَتَوَثَّقْتُ أَوَاصِرَ الْمَحَبَّةِ بَيْنَنَا، وَعَرَفَ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَحَذَقَ تَخْطِيطَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ وَمَسَالِكِهَا؛ فَأَرَاخَنِي مِنَ الْعَنَاءِ، وَوَفَّرَ لِي أَسْبَابَ الرَّاحَةِ، وَكَانَ لِي نِعَمَ الْأَنْبِيَسِ.

(٨) وَطَنُ «جُمُعَةٍ»

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ جَرْنَا الْحَدِيثَ إِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْوَطَنِ؛ فَسَأَلْتُهُ عَنْ طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَى وَطَنِهِ، وَهَلْ يَأْمَنُ رَاكِبُ الْبَحْرِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الطَّرِيقِ؟ فَأَثْبَتَ أَنَّ الْوُصُولَ إِلَى وَطَنِهِ

^{٣٢} قاعدة.

^{٣٣} استحسنته.

^{٣٤} يكره.

^{٣٥} تملأ نفسي.

أَمْرٌ مَيْسُورٌ. وَظَلَّ يُحَدِّثُنِي عَنْ وَطَنِهِ أَحَادِيثَ الْمُعْجَبِ الْمُفْتُونِ بِهِ. وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّ فِي الْجَهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ بِلَادِهِمْ قَوْمًا بَيَضَ الْوُجُوهِ، فَأَذْرَكْتُ أَنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ قَوْمًا مِنَ الْإِسْپَانِيِّينَ، وَأَنَّ طَرِيقَ الذَّهَابِ إِلَيْهِمْ مَيْسُورٌ مَأْمُونٌ. فَانْفَتَحَ أَمَامِي بَابُ الْأَمَلِ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ خَلَاصِي مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ قَرِيبٌ. وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى إِعْدَادِ الْمُعَدَّاتِ لِلْسَفَرِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، حَيْثُ أَجِدُ الْوَسَائِلَ مُهَيَّأَةً لِلرُّجُوعِ إِلَى وَطَنِي.

ثُمَّ حَدَّثَنِي أَنَّ زَوْرَقًا كَبِيرًا قَدْ انْقَلَبَ بِرَاكِبِيهِ — مُنْذُ أَعْوَامٍ — وَكَانُوا سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْبَيْضِ أَمْثَالِي، وَقَدْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ، وَأَقَامُوا — وَمَا زَالُوا يُقِيمُونَ — بَيْنَ عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ.

فَسَأَلْتُهُ: «وَكَيْفَ سَلِمُوا مِنْ عَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكَ؟ أَلَمْ يَأْكُلُوهُمْ؟»

فَقَالَ لِي مُتَتَبِّئًا: «بَلْ أَصْبَحُوا إِخْوَةً لَنَا؛ فَإِنَّ بَنِي وَطَنِي لَا يَأْكُلُونَ إِلَّا أَسْرَاهُمْ فِي الْحَرْبِ، أَمَّا الْأَصْدِقَاءُ الْمُسَالِمُونَ فَلَا يَنَالُونَهُمْ بِسُوءٍ.»

(٩) نِكْرِيَاتُ الْوُطَنِ

وَمَضَى عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ. ثُمَّ ارْتَقَيْنَا^{٣٦} — ذَاتَ يَوْمٍ — قِمَّةَ جَبَلٍ شَاهِقٍ،^{٣٧} وَكَانَ الْجَوُّ صَحْوًا؛ فَلَاَحَتَ^{٣٨} الْقَارَّةُ الْبَعِيدَةُ. وَمَا أَنْعَمَ «جُمُعَةُ» نَظَرُهُ مُتَتَبِّئًا مِنْ رُؤْيَا وَطَنِهِ حَتَّى غَلَبَهُ السُّرُورُ عَلَى أَمْرِهِ، فَظَلَّ يَقْفِزُ مِنَ الْفَرَحِ، وَيَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «وَا فَرَحَتَاهُ! وَاطْرِبَاهُ! هَانَذَا أَرَى بِلَادِي! هَانَذَا أَرَى وَطَنِي!»

وَامْتَلَأَ وَجْهُهُ بَشْرًا وَسُرُورًا، وَارْتَسَمَتْ عَلَى أَسَارِيرِهِ^{٣٩} دَلَائِلُ الْحَنِينِ وَالشَّوْقِ إِلَى وَطَنِهِ، فَسَأَلْتُهُ: «أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى بِلَادِكَ؟»

فَأَجَابَنِي وَهُوَ يَتَحَرَّقُ شَوْقًا: «لَيْتَ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةُ تَتَحَقَّقُ، يَا سَيِّدِي!»

^{٣٦} سعدنا.

^{٣٧} عالٍ.

^{٣٨} ظهرت.

^{٣٩} خطوط جبينه.



فَقُلْتُ لَهُ: «وَمَاذَا تَصْنَعُ فِي بِلَادِكَ؟ أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى وَحْشِيَّتِكَ، وَتَرْتَدَّ إِلَى طَبِيعَتِكَ
الْأُولَى، فَتُصْبِحَ غُولا تَأْكُلُ اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ؟»
فَقَالَ لِي فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ: «كَلَّا، كَلَّا، فَإِنَّ «جُمُعَةَ» لَنْ يَعُودَ غُولا كَمَا كَانَ، وَسَوْفَ
يَقْصُّ عَلَى قَوْمِهِ كَيْفَ أَصْبَحَ يَسْتَمْرِي الْخُبْزَ وَاللَّبَنَ وَلَحْمَ الْأَغْنَامِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ

لَذَايِذِ الطَّعَامِ. أَمَّا لَحْمُ الْإِنْسَانِ فَقَدْ أَصْبَحَ «جُمعة» يَعَافُهُ وَلَا يُطِيقُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي اتِّخَاذِهِ طَعَامًا لَهُ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «لَوْ عَرَفُوا مِنْكَ ذَلِكَ لَأَكَلُوكَ!»

فَقَالَ لِي: «كَلَّا، لَا يَأْكُلُونَنِي، بَلْ يَتَعَلَّمُونَ مِنِّي كَيْفَ يَنْظُمُونَ حَيَاتَهُمْ، وَكَيْفَ يَسْتَسَيِّغُونَ أَطْيَبَ الْأَطْعِمَةِ.»

فَسَأَلْتُهُ: «أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى بِلَادِكَ الْآنَ؟»

فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا: «لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ الْمَسَافَةَ الطَّوِيلَةَ سَبَاحَةً.»
فَوَعَدْتُهُ بِإِعْدَادِ زَوْرَقٍ يُوصِلُهُ إِلَى وَطَنِهِ؛ فَقَالَ لِي: «حَبِّذَا ذَلِكَ لَوْ تَمَّ، عَلَى أَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ. وَسَتَرَى كَيْفَ يَغْمُرُكَ أَهْلُ وَطَنِي بِالْحُبِّ، وَلَنْ يُفَكِّرَ أَحَدٌ فِي أَنْ يَأْكَلَكَ، وَلَا سِيَّما إِذَا أَخْبَرْتَهُمْ بِأَنَّكَ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي مِنَ الْهَلَاكِ.»

وَمَا زَالَ يُحَبِّبُ إِلَيَّ الذَّهَابَ مَعَهُ إِلَى وَطَنِهِ، وَيَقْصُ عَلَيَّ كَيْفَ أَكْرَمُوا جَمَاعَةَ الْبَيْضِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَيْهِمْ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، وَكَيْفَ أَنْسَوْا بِهِمْ، وَارْتَاَحُوا إِلَى عِشْرَتِهِمْ؛ حَتَّى أَجْمَعْتُ أَمْرِي^{٤٠} وَتَأَهَّبْتُ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ؛ لَعَلِّي أَتِمَّكُنَّ مِنَ الْعُودَةِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى وَطَنِي.

(١٠) الْمَرْكَبُ الشَّرَاعِيُّ

وَأَشْتَدَّتْ رَغْبَتِي فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْحُلُمِ الْجَمِيلِ، فَذَهَبْتُ مَعَ «جُمعة» إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَضَعْتُ فِيهِ زَوْرَقِي، ثُمَّ رَكِبْنَاهُ مَعًا؛ فَرَأَيْتُ «جُمعة» أَمْهَرَ مِنِّي وَأَقْدَرَ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ وَمُضَاعَفَةِ السَّرْعَةِ. فَقُلْتُ لَهُ: «أَفِي اسْتَطَاعَتِكَ الْآنَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى وَطَنِكَ؟»

فَقَالَ: «لَنْ يَحْتَمِلَ هَذَا الزَّوْرَقُ الصَّغِيرُ تِلْكَ الرِّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «عَلَيْنَا أَنْ نَعِدَّ زَوْرَقًا أَكْبَرَ مِنْهُ لِنَرْكَبَهُ إِلَى وَطَنِكَ.»

فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ لِي مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا: «مَا الَّذِي أَغْضَبَ سَيِّدِي عَلَيَّ؟ وَمَا بَالُ سَيِّدِي يُحَاوِلُ أَنْ يَقْصِيَ^{٤١} عَنْهُ خَادِمَهُ جَمعة؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «أَلَا تَتَمَنَّى أَنْ تَعُودَ إِلَى وَطَنِكَ؟»

^{٤٠} عَزِمْتُ.

^{٤١} يَبْعِدُ.

فَقَالَ: «نَعَمْ، نَعَمْ، أَتَمَنَّى ذَلِكَ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِي، عَلَى أَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي الْعُودَةِ إِلَى بِلَادِي. أَمَّا أَنْ أَتْرَكَ صُحْبَكَ وَأَعُودَ وَحْدِي فَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَحْتَمِلَ فِرَاقَكَ بَعْدَ أَنْ أَمْتَلَأَ قَلْبِي بِحُبِّكَ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْكَرِيمُ، الَّذِي غَمَرَنِي بِعَطْفِهِ، وَطَوَّقَ عُنُقِي بِصَنَائِعِهِ.»^{٤٢} فَتَظَاهَرْتُ بِالْإِصْرَارِ^{٤٣} لِأَخْتَبِرَ مَدَى حُبِّهِ إِلَيَّ.

فَلَمَّا رَأَنِي جَادًّا فِي رَفْضِي غَابَ عَنِّي قَلِيلًا، ثُمَّ عَادَ إِلَيَّ وَفِي يَدِهِ قُدُومٌ، وَقَالَ لِي، وَقَدْ تَمَلَّكَ الْيَأْسُ وَالْحَزَنُ: «بِرَبِّكَ أَقْتُلْنِي بِهِذِهِ الْقُدُومِ، وَأَرْحِنِي مِنَ الْحَيَاةِ، مَا دُمْتُ مُصِرًّا عَلَى إِزْسَالِ «جُمُعَةٍ» إِلَى قَوْمِهِ!»

فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي إِظْهَارِ مُوَافَقَتِي عَلَى السَّفَرِ مَعَهُ، بَعْدَ أَنْ بَلَّوْتُ إِخْلَاصَهُ،^{٤٤} وَعَرَفْتُ مَدَى حُبِّهِ إِلَيَّ. وَوَعَدْتُهُ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ فِي مُرَافَقَتِهِ إِلَى وَطْنِهِ. وَلَمْ نُضِعْ وَقْتَنَا عَبَثًا، بَعْدَ أَنْ عَزَمْنَا عَلَى الْقِيَامِ بِهِذِهِ الرَّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ؛ فَذَهَبْنَا إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَطَعْنَاهَا. وَمَا زِلْنَا دَائِبِينَ^{٤٥} فِي الْعَمَلِ حَتَّى صَنَعْنَا زَوْرَقًا كَبِيرًا فِي خِلَالِ شَهْرٍ كَامِلٍ. وَبَعْدَ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا، اسْتَطَعْنَا أَنْ نُنْزِلَ الزَّوْرَقَ فِي الْبَحْرِ. وَقَدْ تَكَبَّدْنَا^{٤٦} فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَنَاءً لَا يُوصَفُ. وَلَمْ يَمَرَّ عَلَيْنَا شَهْرَانِ بَعْدَ هَذَا، حَتَّى أَتَمَمْنَا صُنْعَ الشَّرَاعِ وَالسَّارِيَةِ، كَمَا أَنْجَزْنَا صُنْعَ السُّكَّانِ^{٤٧} وَقَدْ بَدَأْتُ الْجُهْدَ فِي تَدْرِيبِ «جُمُعَةٍ» عَلَى تَسْيِيرِ هَذَا الْمَرْكَبِ الشَّرَاعِيِّ حَتَّى حَذَقَهُ وَآتَقَنَهُ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْمَرْكَبِ الشَّرَاعِيِّ عَهْدٌ، وَلَمْ يَرِ لَهُ شَيْبَهَا طُولَ عُمُرِهِ؛ فَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الْجَدْفَ وَحْدَهُ، أَمَّا اسْتِخْدَامُ الشَّرَاعِ وَالسُّكَّانِ فَذَلِكَ مَا لَمْ يَأْلُفُوهُ، وَلَمْ يَسْمَعُوا بِهِ. وَقَدْ أَكْسَبَتْهُ الْمَرَانَةُ قُدْرَةً عَجِيبَةً عَلَى تَسْيِيرِ مَرْكَبِنَا الشَّرَاعِيِّ، وَأَصْبَحَ — بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ — رُبَّانًا مَاهِرًا.

^{٤٢} أعماله الجميلة.

^{٤٣} العزم والثبات.

^{٤٤} عرفته.

^{٤٥} مواظبين.

^{٤٦} قاسينا.

^{٤٧} الدفة.

وَهَكَذَا تَمَّ لَنَا إِعْدَادُ الْعُدَّةِ لِلسَّفَرِ إِلَى وَطَنِ «جُمُعَة»، وَلَمْ يُعَوِّزْنَا^{٤٨} شَيْءٌ مِنَ الْمُعَدَّاتِ.

(١١) حَرْبُ الْأَعْدَاءِ

وَمَضَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ بَعْدَ ذَلِكَ. وَقَدْ أَصْبَحَتِ الْجَزِيرَةُ — حِينَئِذٍ — جَنَّةً نَضْرَةً^{٤٩} بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَنَفًى مُوحِشًا، فَقَدْ آنَسَنِي «جُمُعَة» بَعْدَ وَحْشَةٍ، وَتَغَلَّبَ إِخْلَاصُهُ وَحُبُّهُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ اعْتَرَضَتْنا فِي حَيَاتِنَا.

وَجَاءَ الْعَامُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ، وَأَنَا أَتَرَقَّبُ الْخَلَاصَ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ. فَلَمَّا أَقْبَلَ الشِّتَاءُ وَضَعْنَا الزُّورَقَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ، حَتَّى انْقَضَى «نُوفَمْبَرُ» وَ«دِيسَمْبَرُ». ثُمَّ أَخَذْنَا نُهَيِّئُ الْأَسْبَابَ، وَنَسْتَكْمِلُ مُعَدَّاتِ السَّفَرِ إِلَى وَطَنِ «جُمُعَة».

وإِنَّا لَجَادَانِ — فِي صَبَاحِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَقَدْ خَرَجَ «جُمُعَة» لِصَيْدِ السَّلَاحِ كِعَادَتِهِ — إِذْ عَادَ إِلَيَّ مُسْرِعًا، وَهُوَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الدُّعْرِ، وَيَصِيحُ خَائِفًا: «يَا لِلْهُوْلِ يَا سَيِّدِي!»

فَسَأَلْتُهُ: «أَيُّ هَوْلٍ تَعْنِي؟»

فَقَالَ: «ثَلَاثَةُ زَوَارِقَ تَدْنُو إِلَيْنَا، قَادِمَةً عَلَيْنَا.»

فَطَلَلْتُ أَطْمَئِنُّهُ وَأَسْرِي عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصْغِي لِمَا أَقُولُ؛ فَقَدْ كَانَ مُوقِنًا أَنَّ أَعْدَاءَهُ لَمْ يَعُودُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ إِلَّا لِيَبْحَثُوا عَنْهُ، وَيَمَزُقُوا جِسْمَهُ، وَيَشْوُوهُ عَلَى النَّارِ! فَقُلْتُ لَهُ: «تَسْجَعُ يَا «جُمُعَة»؛ فَلَنْ يُفِيدَكَ الْجَرَعُ شَيْئًا، وَلَنْ يَبْقِيَ الْأَعْدَاءُ عَلَى أَحَدٍ مِنَّا إِذَا ظَفَرُوا بِهِ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا أَنْ نُوطِّنَ نَفْسَيْنَا^{٥٠} عَلَى قِتَالِهِمْ. وَسَأَبْدُلُ نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ، فَلَا تُخَالِفْ لِي أَمْرًا. وَسَتَرَى كَيْفَ نَحْصُدُهُمْ^{٥١} بِرِصَاصِنَا حَصْدًا.»

^{٤٨} لم ينقصنا.

^{٤٩} جميلة خضراء.

^{٥٠} تقويهما.

^{٥١} نهلكهم.



وَمَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى أَعَدْتُ إِلَيْهِ شَجَاعَتَهُ؛ فَبَنَى عَزَمَهُ عَلَى أَنْ يَسْتَبْسِلَ^{٥٢} فِي قِتَالِهِمْ،
حَتَّى نَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ أَوْ نَمُوتَ كَرِيمِينَ.

وَتَأَمَّنَّا لِمَحَارِبَتِهِمْ، فَارْتَقَيْتُ قِمَّةَ الْجَبَلِ، فَرَأَيْتُ — مِنْ خِلَالِ مِنْظَارِي — وَاحِدًا
وَعِشْرِينَ رَجُلًا جَالِسِينَ حَوْلَ النَّارِ. فَنَزَلْتُ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ،^{٥٣} وَأُرْسَلْتُ «جُمُعَةً» لِيَتَعَرَّفَ
مَا يَصْنَعُونَهُ؛ فَعَادَ إِلَيَّ — بَعْدَ قَلِيلٍ — وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ يَشُورُونَ أَحَدَ الْأَسْرَى عَلَى النَّارِ
لِيَأْكُلُوا لَحْمَهُ. فَذَهَبْتُ إِلَى الْغَابَةِ وَمَعِيَ «جُمُعَةً»، وَاخْتَفَيْنَا بَيْنَ أَشْجَارِهَا الْكَثِيفَةِ، حَتَّى
أَصْبَحْنَا عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ؛ فَرَأَيْنَا رَجُلًا أَبْيَضَ الْوَجْهِ، مُلْتَجِيًا، مَشْدُودَ الْوَتَاقِ،
مَطْرُوحًا عَلَى الرَّمْلِ فَصَبَرْتُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا شَرَعُوا فِي حَلِّ وَثَاقِهِ أَمَرْتُ «جُمُعَةً» أَنْ

^{٥٢} يعرض نفسه للموت.

^{٥٣} أسفله.



يُطَلِّقَ الرِّصَاصَ مَعِيَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. وَكَانَتْ مُفَاجَأَةً عَجِيبَةً؛ فَقَدْ قَتَلَ «جُمُعَةُ» — وَحْدَهُ — اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَجَرَحَ ثَلَاثَةً، وَقَتَلْتُ رَجُلًا وَاحِدًا وَجَرَحْتُ اثْنَيْنِ. وَمَا سَمِعَ الْأَعْدَاءُ دَوِيَّ الرِّصَاصِ، وَرَأَوْا مَا حَلَّ بِأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْأَذَى، حَتَّى تَمَلَّكَهُمْ الْخَوْفُ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الدُّعْرُ؛ فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ،^{٥٤} وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَ بِالنِّجَاةِ. وَرَكِبُوا زَوْرَقَيْنِ لِيَهْرُبُوا إِلَى بِلَادِهِمْ مِنْ هَذِهِ الصَّوَاعِقِ الَّتِي لَمْ يَرَوْا لَهَا، فِي حَيَاتِهِمْ، مَثِيلًا. فَاقْتَرَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ الْأَبْيَضِ وَحَيَّيْتُهُ، فَوَجَدْتُهُ أَقْرَبَ إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ إِلَى الْحَيَاةِ. فَفَكَّكْتُ وَثَاقَهُ، وَسَقَيْتُهُ وَأَطْعَمْتُهُ، حَتَّى عَادَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ، وَأَفَاقَ مِنْ إِغْمَاءَتِهِ، فَشَكَرَ لِي صَنِيعِي أَحْسَنَ الشُّكْرِ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ إِسْپَانِي الْأَصْلِ، وَأَنَّ سُوءَ حَظِّهِ أَوْقَعَهُ أَسِيرًا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ.

^{٥٤} لجأوا إلى الهرب.



(١٢) أَبُو «جُمُعَة»

وَرَأَى «جُمُعَة» زَوْرَقًا تَرَكَهُ الْأَعْدَاءُ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ نَرْكَبَهُ لِنُطَارِدَهُمْ وَنَمْلَأَ قُلُوبَهُمْ رُعبًا وَهَلَعًا. فَأَعْجَبَنِي اقْتِرَاحُهُ، وَمَا وَصَلْنَا إِلَى الزَّوْرِقِ، حَتَّى رَأَيْنَا فِيهِ أَسِيرًا ثَالِثًا. فَفَكَّكْتُ وَثَاقَهُ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَنْهَضَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ لَا يَتِمَّاسُكَ مِنْ شِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ. وَلَمْ يَرَ «جُمُعَة» هَذَا الْأَسِيرَ حَتَّى ارْتَمَى عَلَيْهِ يَقْبَلُهُ وَيُعَانِقُهُ، وَقَدْ أَذْهَلَهُ الْفَرَحُ حَتَّى كَادَ يُسَلِّمُهُ إِلَى الْجُنُونِ. فَظَلَّ يَبْكِي وَيَضْحَكُ وَيَقْفِزُ وَيَرْقُصُ وَيَفْرِكُ يَدَيْهِ، وَيَعَضُّ أَنْامِلَهُ، وَيَلْطِمُ وَجْهَهُ، وَيُغْنِي، وَأَنَا أَحَاوِلُ أَنْ أَسْتَوْضِحَهُ سِرَّ هَذَا الْخَبَالِ، °° وَهُوَ لَا يُصْغِي إِلَيَّ. ثُمَّ هَذَا قَلِيلًا، وَالتَفَتْتُ إِلَيَّ قَائِلًا: «اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَسِيرَ هُوَ أَبِي. وَقَدْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ، فَكَيْفَ لَا يَتِمَلَّكُنِي الْفَرَحُ وَالطَّرَبُ!»



فَتَرَكْتُهُ فِي فَرْجِهِ، وَأَعْجِبْتُ بِهَذَا الْحُبِّ الْبَنَوِيِّ. وَقَدْ أَقْبَلَ «جُمُعَةُ» عَلَى أَبِيهِ يُدْفِنُهُ
وَيَتَعَهَّدُهُ — فِي حَنُوِّ الْوَلَدِ الشَّفِيقِ الْبَارِّ — وَيَفْرُكُ لَهُ سَاقِيهِ اللَّتَيْنِ أَضَرَ بِهِمَا الْوِثَاقُ،
وَيَسْقِيهِ تَارَةً، وَيُطْعِمُهُ تَارَةً أُخْرَى، حَتَّى أَعَادَ إِلَيْهِ قُوَاهُ.
فَأَمَرْتُ «جُمُعَةَ» أَنْ يُعْنِيَ^{٥٦} بِالرَّجُلِ الْإِسْپَانِي — كَمَا عُنِيَ بِأَبِيهِ — فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي
إِطَاعَةِ أَمْرِي.



ثُمَّ حَمَلْنَا الْإِسْپَانِي وَأَبَا «جُمُعَةَ» عَلَى لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ، لِعَجْزِهِمَا عَنِ السَّيْرِ، حَتَّى
وَضَعْنَاهُمَا فِي خِيْمَةٍ أَقَمْنَاهَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِصْنِ، وَأَعَدَدْنَا لِكُلِّ مِنْهُمَا فِرَاشًا مِنَ الْقَشِّ.
وَكَانَ «جُمُعَةُ» خَيْرَ تَرْجُمَانٍ يَنْقُلُ لِي مَا يَقُولُهُ أَبُوهُ وَالْإِسْپَانِي الَّذِي أَنْقَزَ لُغَةَ أَعْدَائِهِ،
لِطُولِ عَشْرَتِهِ وَإِقَامَتِهِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ.^{٥٧}

^{٥٦} يهتم.

^{٥٧} معهم.



ثُمَّ أَمَرْتُ «جُمُعَة» أَنْ يَذْفِنَ الْقَتْلَى، حَتَّى لَا تَفْسُدَ جُسُثُهُمْ، فَتُحَدِّثَ رَائِحَتَهَا الْأَمْرَاضَ الْخَبِيثَةَ؛ فَقَامَ بِهَذَا الْعَمَلِ خَيْرٌ قِيَامٍ.

(١٣) بَعْدَ فِرَارِ الْأَعْدَاءِ

وَقَضَيْنَا زَمَنًا طَوِيلًا، وَنَحْنُ نَتَّعَاوُنُ عَلَى زَرْعِ الْأَرْضِ، وَتَوْفِيرِ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ وَالرَّخَاءِ، وَيَأْتِنِسُ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ. وَسُرْعَانَ مَا تَمَّتِ الْأُلْفَةُ بَيْنَنَا جَمِيعًا، وَأَصْبَحْنَا أَصْفِيَاءَ مُتَحَابِّينَ. وَقَدْ سَأَلْتُ أَبَا «جُمُعَة»، ذَاتَ يَوْمٍ: «أَتَرَانَا^{٥٨} فِي خَطَرٍ مِنْ غَارَةِ أَعْدَائِنَا، مَرَّةً أُخْرَى؟» فَقَالَ لِي فِي لَهَجَةِ الْحَازِمِ الْمُسْتَيْقِنِ: ^{٥٩} «كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدَتِهِمْ بَعْدَ هَذِهِ النُّكْبَةِ. وَمَا أَحْسَبُهُمْ قَدْ نَجَوْا مِنَ الْعَاصِفَةِ الَّتِي هَبَّتْ عَلَيْهِمْ، فِي أَثْنَاءِ فِرَارِهِمْ. وَلَوْ أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنْهَا

^{٥٨} أَتَحْسِبُنَا.

^{٥٩} الْمُتَشَبِّهُ.



لَمَّا وَجَدُوا مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يَحْفِزُهُمْ^{٦٠} إِلَى مُعَاوَدَةِ الْكُرَّةِ؛ فَقَدْ أَطَارَ دَوِيُّ الرِّصَاصِ عُقُولَهُمْ. وَسَيَقُصُّونَ عَلَى أَهْلِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ مَا رَأَوْهُ مِنَ الصَّوَاعِقِ وَالرُّعُودِ الَّتِي أَفْنَتَ جَمَاعَةً مِنْ رِفَاقِهِمْ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَتَحَدَّثُ — فِي أَثْنَاءِ فِرَارِهِ — وَهُوَ مَذْهُوشٌ مِمَّا رَأَى، وَقَدْ مَلَأَتْهُ الْحَيْرَةُ وَالْعَجَبُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى تَغْلِيلِ يُفَسِّرُ بِهِ قُدْرَةَ أَعْدَائِهِ عَلَى قَذْفِهِمْ بِالصَّوَاعِقِ، وَتَسْخِيرِ الرُّعُودِ وَالْفَلَكَ^{٦١} لِلْفَتَكِ بِمَنْ يُرِيدُونَ، عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، دُونَ عَنَاءٍ.»

وَقَدْ صَدَقَ الشَّيْخُ فِي تَكْهُنِهِ وَحَدْسِهِ^{٦٢}؛ فَقَدْ عَلِمْتُ — فِيمَا بَعْدُ — أَنَّ أَعْدَاءَنَا قَدْ أَدَاعُوا عَلَى بَنِي وَطَنِهِمْ — بَعْدَ أَنْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ — أَنْبَاءَ الصَّوَاعِقِ الَّتِي أَمْطَرْنَاهَا

^{٦٠} يدفعهم.

^{٦١} استخدامهما وقهرهما.

^{٦٢} ظنه وتقديره.

عَلَيْهِمْ؛ فَمَلَأُوا قُلُوبَهُمْ رُغْبًا، وَأَيَقَنُوا أَنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مَمْلُوءَةٌ جِنًّا وَعَفَارِيَتٍ، فَلَمْ يَجْزِعُوا عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. عَلَى أَنَّي تَاهَبْتُ لِنِضَالِهِمْ،^{٦٣} وَتَرَقَّبْتُ عَوْدَتَهُمْ زَمَنًا طَوِيلًا، حَتَّى اقْتَنَعْتُ بِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْعُودَةِ. فَاطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي، وَانْصَرَفْتُ إِلَى التَّفَكِيرِ فِي الْعُودَةِ إِلَى وَطَنِي. وَمَرَّتْ بِنَا سَنُونَ عِدَّةٌ، وَنَحْنُ آمِنُونَ وَادِعُونَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْعَازِيَةِ.^{٦٤} وَقَدْ سَهَّلَ عَلَيْنَا أَنْ نُنْجِزَ^{٦٥} — مُتَعَاوِينَ — كُلَّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وَقَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْإِسْپَانِيِّ أَنَّ عِدَدَ أَصْدِقَائِهِ — مِنَ الْإِسْپَانِيِّينَ الَّذِينَ نَجَّوْا مِنَ الْغَرَقِ — يَبْلُغُ سِتَّةَ عَشَرَ، وَلَدِيهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْبُنْدُقِيَّاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ، وَلَيْسَ يُعَوِّزُهُمْ^{٦٦} إِلَّا الرِّصَاصُ وَالْبَارُودُ. وَقَدْ حَاولُوا الْعُودَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ؛ فَأَعَوَّزَتْهُمْ الْمُعَدَّاتُ، فَأَقَامُوا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ مُرْغَمِينَ.^{٦٧} فَسَأَلْتُهُ: «أَتَرَاهُمْ يَلْبُثُونَ^{٦٨} اقْتِرَاحِي، إِذَا هَيَّأْتُ لَهُمْ أَسْبَابَ السَّفَرِ؟»

فَقَالَ لِي: «لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نُفُوسِهِمْ مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ». وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ يَذْهَبَ مَعِ أَبِي «جُمُعَةً» لِمُقَابَلَتِهِمْ؛ فَأَذِنْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ لِي: «إِنَّهُ سَيَكُونُ — هُوَ وَرِفَاقُهُ — رَهْنَ إِشَارَتِي، وَسَيَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِالْوَفَاءِ لِي، قَبْلَ أَنْ يُحْضِرَهُمْ إِلَى جَزِيرَتِي. وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ رَكِبَ الْإِسْپَانِيُّ وَالشَّيْخُ زُورَقَ الْأَعْدَاءِ بَعْدَ أَنْ زَوَّدَتْهُمَا بِكُلِّ مَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ، مِنْ طَعَامٍ وَسِلَاحٍ، وَرَجَوْتُ لَهُمَا سَفَرًا سَعِيدًا وَعُودًا حَمِيدًا.

^{٦٣} محاربتهم.

^{٦٤} البعيدة.

^{٦٥} نتم.

^{٦٦} لا ينقصهم.

^{٦٧} مكرهين.

^{٦٨} ينفذون.

الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ

(١) الْمُفْجَأَةُ

ظَلَلْتُ أَتَرَقَّبُ عُودَةَ الشَّيْخِ وَالْإِسْپَانِي ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ. ثُمَّ وَقَعَ لِي حَدِثٌ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرُ لِي عَلَى بَالٍ. فَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي عَلَى صُرَاخٍ «جُمُعَةٌ»، وَهُوَ يَصِيحُ وَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «سَيِّدِي سَيِّدِي! لَقَدْ اقْتَرَبُوا مِنَّا.»

فَارْتَدَيْتُ ثِيَابِي — مِنْ فَوْرِي — وَأَسْرَعْتُ نَحْوَ الشَّاطِئِ. وَأَجَلْتُ لِحَاظِي فِي عُرْضِ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُ زَوْرَقًا شِرَاعِيًّا مُيَمَّمًا^١ جَزِيرَتَنَا؛ وَهُوَ عَلَى بُعْدِ مِيلٍ وَنِصْفِ مِيلٍ مِنْهَا. فَأَمَرْتُ «جُمُعَةً» أَنْ يَتَرَيَّتَ^٢ فِي الْأَمْرِ، حَتَّى نَتَعَرَّفَ جَلِيَّتَهُ^٣. وَأَكْدْتُ لَهُ أَنَّ رَاكِبِي الزَّوْرَقِ لَيْسُوا أَصْحَابُنَا الَّذِينَ أَرْسَلْنَا أَبَاهُ وَالْإِسْپَانِي لِإِحْضَارِهِمْ، وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِنَا أَنْ نَعْرِفَ: أَعْدَاءُ لَنَا أَمْ أَصْدَقَاءُ؟

ثُمَّ ارْتَقَيْتُ قِمَّةَ الْجَبَلِ، وَرَأَيْتُ — مِنْ خِلَالِ مِنْظَارِي — سَفِينَةً وَاقِفَةً عَلَى مَسَافَةِ مِيلَيْنِ وَنِصْفِ مِيلٍ تَقْرِيْبًا. وَقَدْ عَرَفْتُ — مِنْ أَسْلُوبِ بِنَائِهَا — أَنَّهَا سَفِينَةٌ مِنْ سُفُنِ بِلَادِنَا؛ فَأَيَّقَنْتُ أَنَّ خَلَاصِي مِنَ الْأَسْرِ قَرِيبٌ، وَفَاضَ قَلْبِي بِشْرًا وَسُرُورًا. وَلَكِنِّي شَعَرْتُ — فِي نَفْسِي — بِشَيْءٍ مِنَ الْإِنْتِقَابِصِ يُنْغِصُ عَلَيَّ هَذَا الْفَرَحَ.

^١ قاصدًا.

^٢ يتمهل.

^٣ حقيقته.

^٤ صعدت.

فَقَدْ تَوَجَّسْتُ^٥ شَرًّا؛ لِأَنَّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُعْلِلَ اقْتِرَابِ مِثْلِ هَذِهِ السَّفِينَةِ مِنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ، عَلَى غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْمُرُورِ بِهَا. وَرَأَيْتُ — مِنَ الْحَزَامَةِ^٦ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ — أَنْ أَتَرَيْتُ؛ حَتَّى أَتَبَيَّنَ الْحَقِيقَةَ وَاضِحَةً، لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا غُمُوضَ.

(٢) شَكْوَى الرُّبَّانِ

وَلَمَّا رَسَا الزُّورُ قُ عَدَدْتُ رَاكِبِيهِ؛ فَرَأَيْتُهُمْ أَحَدَ عَشَرَ مِنْ بَنِي وَطَنِي، وَرَأَيْتُ — مِنْ بَيْنِهِمْ — ثَلَاثَةً مَشْدُودِي الْوُثَاقِ. ثُمَّ قَفَزَ خَمْسَةُ رِجَالٍ إِلَى الشَّاطِئِ يَقُودُونَ أَسْرَاهُمْ بِالْحِبَالِ، فَلَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا، وَلَمْ أَهْتِدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللَّغْزِ الْغَامِضِ.

فَقَالَ لِي خَادِمِي «جُمُعَةٌ»: «لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ سَيَأْكُلُونَ أَسْرَاهُمْ كَمَا يَفْعَلُ بَنُو وَطَنِنَا.» فَأَكَّدْتُ لَهُ أَنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ، وَلَنْ يَتَعَدَّى انتِقَامُهُمْ مِنْ أَسْرَاهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ، أَمَّا أَنْ يَأْكُلُوهُمْ فَذَلِكَ مَا لَا يَدُورُ لَهُمْ بِخَلَدٍ.^٧

وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَرَكَوا الْأَسْرَى فِي مَكَانِهِمْ، ثُمَّ ذَهَبُوا يَجُوبُونَ الْجَزِيرَةَ^٨ مُنْتَزِّهِينَ، حَتَّى السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ. فَوَقَّفُوا يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ أَشْجَارِ الْغَابَةِ، بَعْدَ أَنْ اشْتَدَّتْ حَرَارَةُ الْقَيْظِ، وَجَهَدَهُمْ^٩ الْحَرُّ؛ فَانْطَرَحُوا عَلَى الْأَرْضِ، وَاسْتَسَلَّمُوا لِلنَّوْمِ. فَذَنُوتُ مِنَ الْأَسْرَى، وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ مَصْدَرِ شَقَائِهِمْ؛ فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُمْ^{١٠} مِنْ رُؤْيَايَ. وَلَكِنِّي طَمَأَنْنْتُهُمْ حَتَّى سُرِّي عَنْهُمْ^{١١} وَرَأَوْا أَمَلًا كَبِيرًا فِي خَلَاصِهِمْ.

^٥ أحسست.

^٦ الحكمة.

^٧ لا يمر بعقلهم.

^٨ يجولون فيها.

^٩ أتعبهم.

^{١٠} فزعوا.

^{١١} ذهب خوفهم.

وَقَدْ قَالَ لِي أَحَدُهُمْ، وَقَدْ شَرِقتُ^{١٢} عَيْنَاهُ بِالْدمُوعِ: «أنا رَبَّانُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُقَلُّ هَؤُلَاءِ الْمَلَّاحِينَ. وَقَدْ ثَارَ عَلَيَّ رَجَالِي وَتَمَرَّدُوا، وَعَزَمُوا عَلَيَّ أَنْ يَتْرَكُونِي فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْعَازِيَةِ الْمُقْفَرَةِ، مَعَ هَذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَبَيَا^{١٣} أَنْ يَشْرَكَاهُمْ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ.»

(٣) النَّصْرُ

فَسَأَلْتُهُ: «أَتُعَاهِدُنِي عَلَى أَنْ تُقَلِّلَنِي وَصَاحِبِي «جُمُعَةً» فِي سَفِينَتِكَ، إِذَا أَنْقَذْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرُطَةِ؟»^{١٤}

فَقَالَ: «لَوْ تَمَّ ذَلِكَ لَأَصْبَحْتُ رَهْنًا إِيَّاهُ. فَرَسَمْنَا خُطَّةً بَارِعَةً لِلْقَبْضِ عَلَى الْعِصَاةِ، وَالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى زُورِقِهِمْ. وَقَدْ فَاجَأَنَا هُمْ وَهُمْ نَائِمُونَ، وَأَوْهَمْتُهُمْ أَنَّ لَدَيَّ جَيْشًا كَبِيرًا؛ فَاضْطُرَّ أَكْثَرُهُمْ إِلَى الْإِذْنِ،^{١٥} وَعَاهَدُونَا عَلَى الْإِخْلَاصِ.

ثُمَّ ذَهَبَ الرَّبَّانُ وَ«جُمُعَةُ» وَرِفَاقُهُ إِلَى السَّفِينَةِ، وَأَسْرَوْا وَكَيْلَ الرَّبَّانِ وَمَنْ أَلْهَبَ مَعَهُ نَارَ الْفِتْنَةِ، وَأَطْلَقُوا سَبْعَ طَلَقَاتٍ مِنْ مَدْفَعِ السَّفِينَةِ إِعْلَانًا لِانْتِصَارِهِمْ. فَلَمْ أَعُدْ أَتَمَّاكُ مِنَ الْفَرَحِ، وَلَمْ أَكُذْ أَصْدُقْ مَا أَرَى؛ فَارْتَمَيْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاسْتَسَلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ. ثُمَّ جَاءَ الرَّبَّانُ وَعَانَقَنِي، وَقَالَ لِي: «إِنَّ السَّفِينَةَ وَرَبَّانَهَا وَمَلَّاحِيهَا لَيْسُوا إِلَّا مِلْكُ يَدَيْكَ وَطَوْعُ إِشَارَتِكَ.» فَأَيْقَنْتُ — جِينَنْدُ — بِالْخَلَاصِ، وَغَلَبَنِي السُّرُورُ عَلَى أَمْرِي؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْبَسَ^{١٦} بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

^{١٢} امتلأت.

^{١٣} امتنعاً.

^{١٤} إذا خلصتك من هذا المكان الذي يعرضك للهلاك.

^{١٥} التسليم.

^{١٦} أنطق.



ثُمَّ أَفْقَتُ مِنْ ذُهُولِي وَدَهْشَتِي، فَأَقْبَلْتُ عَلَى الرَّبَّانِ أَعَانِقُهُ وَأَشْكُرُ لَهُ أَحْسَنَ الشُّكْرِ.
وَقَدْ أَحْضَرَ لِي الرَّبَّانُ هَدَايَا فَاخِرَةً، وَأَطْعَمَهُ لَذِيذَةً، وَثِيَابًا جَمِيلَةً، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ
التُّحَفِ وَالطُّرَفِ.^{١٧}

(٤) مُعَدَّاتُ السَّفَرِ

وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَتَاهَبَ لِلسَّفَرِ. وَقَدْ اسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَى تَرْكِ زُعَمَاءِ الثَّوَرَةِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ
فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ؛ حَتَّى لَا يُفْسِدُوا عَلَيْنَا أَمْرَنَا. وَقَدْ شَرَحْتُ لَهُمْ وَسَائِلَ الْعَيْشِ وَأَسَالِيبَ
الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْبِقَاعِ،^{١٨} وَعَلَّمْتُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ الْخُبْزَ، وَكَيْفَ يَبْذُرُونَ وَيَحْصِدُونَ،
وَكَيفَ يُجَفِّقُونَ الْعِنَبَ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الصَّرُورِيَّاتِ. ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُمْ أَنَّ سِتَّةَ عَشَرَ

^{١٧} الأشياء الغريبة الثمينة.

^{١٨} الأراضي.

إِسْبَانِيًّا قَادِمُونَ عَلَيْهِمْ — بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ — وَتَرَكْتُ مَعَهُمْ كِتَابًا إِلَيْهِمْ أَوْصِيَهُمْ بِهِمْ خَيْرًا. وَأَخَذْتُ عَلَيْهِمُ الْمَوَاقِيقَ وَالْعُهُودَ أَنْ يَعْيشُوا جَمِيعًا مُتَعَاوِنِينَ مُتَحَابِّينَ. وَتَرَكْتُ لَهُمْ مَا كَانَ لَدَيَّ مِنْ سِلَاحٍ، وَهُوَ خَمْسَةُ مَسَدَّاتٍ، وَثَلَاثُ بُنْدُقِيَّاتٍ، وَثَلَاثَةُ سُيُوفٍ، كَمَا تَرَكْتُ لَهُمْ كُلَّ مَا بَقِيَ عِنْدِي مِنَ الْبَارُودِ وَالرَّصَاصِ. وَشَرَحْتُ لَهُمْ: كَيْفَ يَتَعَهَّدُونَ الْمِعْرَى؟ وَكَيْفَ يَحْلُبُونَ لَبَنَهَا؟ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ الزُّبْدَ وَالْجُبْنَ؟

(٥) فِي أَرْضِ الْوَطَنِ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي وَدَعْتُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ النَّائِيَةَ، وَأَخَذْتُ مَعِيَ قَلَنْسُوتِي — وَهِيَ مِنْ جِلْدٍ مَاعِزٍ، كَمَا عَلِمَ الْقَارِئُ — وَمِظْلَتِي وَبَبِغَائِي. وَأَخَذْتُ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ النُّقُودِ، وَقَدْ عَلَاهَا الصَّدَأُ لِطُولِ احْتِجَابِهَا فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْأَعْوَامِ. ثُمَّ أَقْلَعْتُ بِنَا السَّفِينَةَ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ «دَيْسَمْبَر» عَامَ ١٦٨٦ م بَعْدَ أَنْ لَبِثْتُ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ثَمَانِيَّةً وَعِشْرِينَ عَامًا وَشَهْرَيْنِ وَتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا. وَقَدْ فَرِحَ «جُمُعَةُ» بِمُرَافَقَتِي إِلَى بِلَادِي، وَأَثَرُ صُحْبَتِي^{١٩} عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَمِنْ عَجِيبِ الْمُصَادَفَاتِ أَنَّ يَوْمَ خَلَاصِي مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ وَافَقَ يَوْمَ خَلَاصِي مِنَ الْأَسْرِ فِي رِحْلَتِي السَّابِقَةِ، الَّتِي عَرَفَهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ. وَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ «يُونِيَّة» عَامَ ١٦٨٧ م وَصَلْتُ إِلَى «لَنْدَن» بَعْدَ أَنْ غَبْتُ عَنْهَا خَمْسَةَ وَثَلَاثِينَ عَامًا.

(٦) السَّفَرُ إِلَى لِسْبُونَةَ

وَرَأَيْتُنِي غَرِيبًا فِي بِلَادِي، وَوَجَدْتُ وَالِدَيَّ قَدْ مَاتَا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْرِفُنِي مِنْ رِفَاقِي الْقَدَمَاءِ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ إِلَى «لِسْبُونَةَ»، لِأَتَعَرَّفَ وَسِيلَةً إِلَى الْإِسْتِيفَسَارِ عَمَّا

^{١٩} اختار أن يلازمي.



آلَتْ إِلَيْهِ دَسْكَرَتِي،^{٢٠} فِي «الْبَرَاذِيلِ». وَقَدْ عَجَلْتُ بِالسَّفَرِ إِلَى «لِشْبُونَةَ» — وَمَعِيَ «جُمُعَةٌ»
— فَبَلَّغْنَاهَا فِي «أَبْرِيلِ».

وَعَثَرْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — عَلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي أَنْقَذَنِي فِي رِحْلَتِي الْأُولَى حِينَ
فَرَرْتُ مِنَ الْأَسْرِ، وَكَانَ قَدْ شَاخَ وَتَرَكَ سَفِينَتَهُ لَوْلَدِهِ فَذَكَرْتُهُ بِقِصَّتِي، وَسَأَلْتُهُ عَنْ

^{٢٠} قريتي.

دَسَكْرَتِي فِي «الْبِرَازِيلِ»؛ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهَا مُنْذُ تِسْعِ سَنَوَاتٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأَلُ
جُهْدًا فِي إِرسَالِ الرُّسُلِ إِلَى شُرَكَائِي، حَتَّى ظَفَرَ — بَعْدَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ — بِنَصِيبِي مِنَ
الْمَالِ وَالْبَضَائِعِ؛ فَأَرَبْتُ^{٢١} ثَرَوَتِي عَلَى خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْجَنِيهَاتِ.
وَقَدْ ضَمِنْتُ بِذَلِكَ رَيْعًا سَنَوِيًّا — مِنْ ضَيْعَتِي بِالْبِرَازِيلِ — لَا يَقِلُّ عَنْ أَلْفِ جُنَيْهٍ؛
فَأَجَزَلْتُ مُكَافَأَةَ الرَّبَّانِ الْمُحْسَنِ، اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ عَلَيَّ، وَصَنِيعِهِ الَّذِي أَسْلَفَهُ إِلَيَّ.
وَبَقِيَتْ عِدَّةُ أَشْهُرٍ حَائِرًا مُضْطَرِبًّا، لَا أَدْرِي: إِلَى أَيِّ بَلَدٍ أَقْصِدُ؟ ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَزْمِي
عَلَى السَّفَرِ إِلَى «إِنْجِلْتِرَا».

^{٢١} زادت.

الفصل التاسع

أهوال البرّ

(١) السَّفَرُ إِلَى «مَدْرِيد»

وَبَقِيتُ مُتَرَدِّدًا فِي الطَّرِيقِ الَّتِي أَتَخَيَّرُ سُلُوكَهَا، وَشَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ، بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ مِنْ الْأَخْطَارِ وَالْمَتَاعِبِ. وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفَرَ فِي الْبَرِّ أَمْنٌ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ إِلَى «مَدْرِيد»، بِحَيْثُ أَجْتَازُ طَرِيقَ الْبَرِّ إِلَى «فَرَنْسَا»، ثُمَّ لَا يَبْقَى عَلَيَّ إِلَّا مَسَافَةٌ قَصِيرَةٌ أَغْبُرُهَا — فِي الْبَحْرِ — بَيْنَ «كَالِيه» وَ«دُوقِر». وَقَدْ وَفَّقْتُ إِلَى رِفَاقٍ يَصْحَبُونَنِي فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ — وَكَانَ عَدَدُهُمْ سِتَّةً مِنَ السَّادَةِ، وَخَمْسَةٌ مِنَ الْخَدَمِ — حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى «مَدْرِيد».

(٢) الذُّبَابَانِ

وَقَدْ اضْطَرَرْنَا إِلَى مُغَادَرَةِ «مَدْرِيد» لِقُرْبِ حُلُولِ الشِّتَاءِ وَعَلِمْنَا أَنَّ الطَّرِيقَ — الَّتِي أَرْمَعُنَا^١ اجْتِيَازَهَا — خَطَرَةٌ فِي هَذَا الْفَصْلِ. وَقَدْ كَانَ الشِّتَاءُ قَاسِيًا الْبُرُودَةِ، وَرَأَيْنَا الثَّلُوجَ تَغْطِي الْجِبَالَ؛ فَتَدَمَّنَا عَلَى مُخَاطَرَتِنَا بِالسَّفَرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمَشْنُومِ. وَكَانَ مَعَنَا دَلِيلٌ ذَكِيٌّ شَجَاعٌ. وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ — عِدَّةَ أَيَّامٍ — حَتَّى قَطَعْنَا مَرَحَلَةً كَبِيرَةً فِي رِحْلَتِنَا الْمُضْنِيَةِ^٢.

^١ قررنا.

^٢ المتعبة الشاقة.



وَكَانَ الدَّلِيلُ يَتَقَدَّمُنَا أحيانًا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْنَا لِيُرْشِدَنَا إِلَى الطَّرِيقِ.
وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ بَعْدَ عَنَّا — كَعَادَتِهِ — فَاَنْقَضَ عَلَيْهِ ذَنْبَانِ. وَرَأَى الدَّلِيلُ هَلَاكُهُ
مُحَقَّقًا وَشَيْكًا؛ فَصَرَخَ مِنَ الْفَرَحِ، فَأَدْرَكَهُ «جُمُعَةٌ»، وَأَطْلَقَ رَصَاصَةً عَلَى أَحَدِ الذُّبَابَيْنِ،
فَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِسَ الدَّلِيلَ. وَفَرَّ الذُّبَابُ الْآخَرُ هَارِبًا حِينَ رَأَى مَصْرَعَ أَخِيهِ.

(٣) الذُّبَابُ

ثُمَّ رَأَى «جُمُعَةٌ» دُبًّا هَائِلَ الْجَرَمِ^٣ مُقْبِلًا عَلَيْهِ؛ فَاشْتَدَّ رُعْبُهَا.
وَلَكِنَّ «جُمُعَةَ» سَخِرَ مِنْهُ،^٤ وَظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَمَارَاتُ الْغِبْطَةِ^٥ بِمُصَارَعَةِ الذُّبَابِ.

^٣ الجسم.

^٤ هزئ به.

^٥ علامات الفرح.



ثُمَّ التَفَتَ إِلَى قَائِلَا: «أَرْجُوا أَلَّا تُعَكِّرُوا عَلَيَّ صَفَائِي؛ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَدَاعِبَ هَذَا الدَّبَّ، لِأُسْرِي عَنْكُمْ قَلِيلًا. فَحَذَارِ أَنْ تُطْلِقُوا عَلَيْهِ الرَّصَاصَ.»
ثُمَّ قَذَفَهُ «جُمْعَةً» بِحَجَرٍ فِي رَأْسِهِ، فَجَرَى الدَّبُّ مُسْرِعًا إِلَيْهِ فَصَعِدَ «جُمْعَةً» شَجَرَةً عَالِيَةً، فَوَقَفَ الدَّبُّ تَحْتَهَا قَلِيلًا، ثُمَّ تَسَلَّقَهَا^٦. فَأَمْسَكَ «جُمْعَةً» بِأَحَدِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ، وَظَلَّ يَهْزُ الغُصْنَ هَذَا عَنِيفًا، وَهُوَ سَاخِرٌ مِنْ حَيَرَةِ الدَّبِّ، الَّذِي ظَلَّ يَتَرَجَّحُ فِي أَثْنَاءِ

^٦ صعدھا.

ذلك. ثُمَّ صَوَّبَ «جُمُعَةً» رَصَاصَةً إِلَى أُذُنِ الدُّبِّ — بَعْدَ أَنْ أَرْقَصَهُ طَوِيلًا — فَقَتَلَهُ. وَقَدْ أَضْحَكْنَا كَثِيرًا.

(٤) لَيْلَةٌ هَائِلَةٌ



وَرَأَيْنَا اللَّيْلَ يَقْتَرِبُ، وَالنَّهَارَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقُضِيَ. فَضَاعَفْنَا السَّيْرَ مُسْرِعِينَ؛ لِنَجْتَازَ الْمَسَافَةَ الْقَلِيلَةَ الْبَاقِيَةَ عَلَيْنَا فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ الْمُخِيفَةِ الْمُفْرَعَةِ. وَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ حَتَّى مَرَّتْ بِنَا خَمْسَةُ ذُنَابٍ؛ فَلَمْ نَأْبَهُ لَهَا.^٧ وَكُنَّا مُتَحَفِّزِينَ^٨ — فِي كُلِّ لَحْظَةٍ — لِمُدَافَعَةِ الذَّنَابِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي سَتَعْتَرِضُنَا فِي الطَّرِيقِ، كَمَا أَخْبَرَنَا الدَّلِيلُ.

^٧ لم نهتم بها.

^٨ مستعدين.

وَمَا تَقَدَّمْنَا نَصْفَ فَرْسَخٍ^٩ بَعْدَ ذَلِكَ، حَتَّى رَأَيْنَا ذَنَابًا كَثِيرَةً تَنْهَشُ لَحْمَ جَوَادٍ مَيِّتٍ، وَقَدْ مَرَّقَتْهُ تَمَزِيْقًا.

وَلَمْ نَجْتَزْ مَرَحَلَةً قَصِيرَةً أُخْرَى، حَتَّى مَلَأَتِ الذَّنَابُ الْجَوَّ بِعَوَائِهَا. وَرَأَيْنَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ ذَنْبٍ تَكَتَنَفْنَا،^{١٠} مُتَحَفِّزَةً لِلْوُثُوبِ عَلَيْنَا، وَالْفَتْكِ بِنَا، فَأَطْلَقْنَا عَلَيْهَا الرِّصَاصَ، وَصَرَخْنَا صَرَخَاتٍ عَالِيَةً لِنُخِفَهَا. فَوَلَّتِ الذَّنَابُ هَارِبَةً.

وَلَمَّا قَطَعْنَا مَرَحَلَةً أُخْرَى، أَحَاطَتْ بِنَا قُطْعَانُ كَبِيرَةٌ، وَسَمِعْنَا صَوْتَ رِصَاصَةٍ بِالْقُرْبِ مِنَّا، وَرَأَيْنَا جَوَادًا يُسَابِقُ الرِّيحَ، وَتَعْدُو فِي إِثْرِهِ جَمَهَرَةٌ مِنَ الذَّنَابِ، فَعَلِمْنَا أَنَّ مَالَهُ^{١١} الْمَوْتَ الْوَشِيكَ.



^٩ نحو أربعة من الكيلومترات.

^{١٠} تحيط بنا.

^{١١} مصيره.

وَمَا سِرْنَا خُطَوَاتٍ قَلِيلَةً، حَتَّى رَأَيْنَا جُنَّةَ جَوَادٍ آخَرَ قَطَعَتْهَا الذُّنَابُ إِرْبًا إِرْبًا،^{١٢}
وَالِى جَانِبِهَا جُنَّتِي فَارِسَيْنِ، لَمْ تُبْقِ مِنْهُمَا الذُّنَابُ إِلَّا الْعِظَامَ. فَعَلِمْنَا أَنَّ أَحَدَهُمَا هُوَ
الَّذِي أَطْلَقَ الرَّصَاصَةَ الَّتِي سَمِعْنَا دَوِيَّهَا مُنْذُ حِينٍ.
وإِنَّا لَحَايِرُونَ مَدْعُورُونَ مِنْ هَذَا الْمَنْظَرِ الْمُفَزِّعِ الْهَائِلِ، إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْنَا — مِنْ
أَسْرَابِ الذُّنَابِ — مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِمُقَاوَمَتِهِ. فَقَدْ اكْتَنَفْنَا نَحْوَ ثَلَاثِمِائَةٍ ذِئْبٍ؛ فَاغْتَصَمْنَا^{١٣}
بِأَشْجَارٍ قَرِيبَةٍ.
وَبَعْدَ أَنْ تَرَجَّلْنَا، ظَلَّلْنَا نَطْلُقُ عَلَيْهَا الرَّصَاصَ فَتَرَجَّعَتْ، ثُمَّ كَرَّتْ عَلَيْنَا كَرَّةً أُخْرَى.
وَمَا زِلْنَا نُحَارِبُهَا مُسْتَبْسِلِينَ، حَتَّى قَتَلْنَا مِنْهَا نَحْوَ سِتِّينَ ذِئْبًا، وَكَسَبْنَا الْمَعْرَكَةَ — بَعْدَ
جِهَادٍ عَنِيفٍ — وَانْتَصَرْنَا عَلَى الذُّنَابِ، بِأَعْجُوبَةٍ لَا مِثِيلَ لَهَا فِي الْأَعَاجِبِ.

(٥) خَاتِمَةُ الرِّحْلَةِ

ثُمَّ قَطَعْنَا الْمَرْحَلَةَ الْبَاقِيَةَ مُسْرِعِينَ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، حَيْثُ انْتَمَمْنَا رِحْلَتَنَا —
بَعْدَ ذَلِكَ — آمِنِينَ.
وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ — مَا حَيِّتُ — هَذِهِ الرِّحْلَةَ الْبَرِّيَّةَ الْمُخِيفَةَ الَّتِي أَنْسَتَنِي أَهْوَالُهَا
أَهْوَالِ الْبَحْرِ.
وَقَدْ آلَيْتُ^{١٤} عَلَى نَفْسِي أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِي فِي دَعَةٍ^{١٥} وَاطْمِئْنَانٍ،
وَأَمِّنٍ وَسَلَامٍ.

^{١٢} قطعة قطعة.

^{١٣} لجأنا.

^{١٤} حلفت.

^{١٥} راحة.